أبو عبدو البغل

حكاية أفغانستان

فهمي هويدي

دار الكلمة للنشر

تصوير أبو محمد
تنسيق جمال حتمل

مصمم الغلاف : سعد عبد الوهاب

دار الكلمة (ش.م.م)
شارع ليون بناية سلام - الحمراء
بيروت لبنان
تليفون ٣٥٤٩٠٢
ص.ب ١٣/٥٢٨٨

حقوق الطبع محفوظة لدار الكلمة
الطبعة الأولى ١٩٧٩

حدث في أفغانستان

فهمي هويدي

دار الكلمة للنشر
١٩٧٩

مقدمة

الآن صار عمر هذا الحدث الذي نتوقف عنده عاما . وخلال ذلك العام من أبريل (نيسان) ٧٨ الى أبريل (نيسان) ٧٩ ، حدثت في العالم الاسلامي ، وبالضبط وراء ظهر العالم العربي ، اذا التزمنا بالحدود الجغرافية ، تحولات تاريخية مثيرة ، تتجاوز بكل تأكيد تفاعلات عام واحد . ولا أبالغ اذا قلت ان عالم عام ٧٩ يكاد يختلف تماما ـ بالنسبة لنا ـ عن عالم السنة الماضية ، كأن كلا منهما ينتمي الى قرن غير القرن ، وعصر غير العصر .

وإذا كانت المقولة الشائعة هي أن أنجازات العلم في عام واحد من زمننا هذا ، تعادل انجازات قرن بأكمله في الماضي ، فإن هذه المقولة أصبحت تنطبق فيما يبدو على عالم السياسة أيضا . ذلك أن هبوط

انسان على القمر ، ليس أكثر أهمية من هبوط الامام آية الله الخميني في مطار « مهر أباد » في طهران ، بعد عودته المظفرة من باريس .

لقد كان « الهبوط » هنا وهناك قفزة هائلة الى الامام ، واقتحاما حقيقيا لعالم - بل عوالم جديدة - في معرفة الانسان وقدرته .

وكما أن الطريق الى القمر مر بأكتشاف أسرار الذرة وتفجيرها ، فإن الطريق الى طهران مر بكابول !

واذا كان لكل من الثورتين توجه سياسي وعقائدي مختلف ، الا أن ريح الثورة واحدة . واعصارها عندما يتحرك ، فإن مسارها لا تحدده المعتقدات السياسية ، بقدر ما يكون محكوما بالاسباب ، لان المعتقدات السياسية لا تنشىء ثورة ، ولكنها قد تغرس بذورها في تربة صالحة او تشعل « الفتيل » في مناخ قابل للانفجار .

فالصراع بين الجماهير وسلطة الملوك في انجلترا الذي كانت ثمرته أصدار « اعلان الحقوق » في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، كان خطوة في الطريق الى تقرير حريات الانسان في أعلان الاستقلال الامريكي في القرن الثامن عشر ، الامر الذي أنعكس بصورة أشد في شعارات الحرية والمساواة التي رفعتها الثورة الفرنسية في منتصف القرن التاسع عشر . وهذه ، الريح هي التي أقتلعت عرش القياصرة الروس بثورة اكتوبر (تشرين الأول) قبل انتهاء الربع الاول من القرن العشرين .

وبنفس القدر ، فان ريح الثورة التي هبت في أيران مع أوائل الخمسينات ، ضد الشاه والنفوذ الامريكي ، ليست بعيدة الصلة بثورة يوليو (تموز) المصرية التي قادها عبد الناصر عام ١٩٥٢ ، او بالثورة على الملكية والنفوذ الانجليزي في العراق بعد ست سنوات . وأيضا فان هذه الريح ذاتها هي التي أقتلعت في الستينات « الامامية » في اليمن ، والملكية في ليبيا . . . وهكذا .

واذا كانت السبعينات قد أطلت علينا متفقة مع موجات الانحسار والانكسار ، التي تجمعت وتراكمت بعد هزيمة يونيو (حزيران) ٦٧ ، فانها اقترنت أيضا بحالة مروعة من الانكفاء على الذات ، أدت بنا الى ان ننعزل عن أحداث كثيرة جرت من حولنا ، وأن ننسحب من مواقع عديده كان لنا ـ عربيا ـ دور فيها . ومنذ أصبح العالم العربي بلا قيادة حقيقية ، غاب عنا الهدف ، واختفى الدور ، واختلفت الوسائل بل تناقضت ، وتحول الغياب أحيانا الى غيبوبة . !

والملفت للنظر أن مرحلة الانسحاب والانكفاء على الذات هذه جاءت مصحوبة بحالة ثراء عربي هائل ، تولدت عن مضاعفة عائدات النفط . أي أننا صرنا في النهاية أكثر ثراء واقل قيمة !

في هذا المناخ بدأ الزلزال في بلاد « الاسلام المعلق » على مشارف هضبة البامير في أفغانستان ، وهضبة ايران اللصيقة بها . هبت

الريح من حيث لا نحتسب ، من بلاد « العجم » بتعبير الرحالة المسلمين القدامى ، لكنها لم تسقط فقط حكم الاسرة الدورانية في أفغانستان واسرة بهلوى في أيران لكنها اسقطت أيضا أثنتين من القلاع الامريكية الحصينة في منطقة وسط آسيا ، وهزت بعنف بالغ سياسات الدول الكبرى في تلك المنطقة . وقلبت حسابات عالمية بغير حصر .

وتلك الريح وهذا الزلزال يتحركان على مشارف منا ، الصرير يصم آذاننا ، والهزات نحس بها بأقدار متفاوتة تحت أقدامنا ، بل وفي أعماقنا .

ألا يدعونا ذلك الى أن نحاول فهم ما يجري هناك ؟

اذا لم يكن الامر يعنينا بأعتبار أننا ـ نحن وهم ـ مسلمون . واذا لم نتنبه الى أن مسرح الاحداث يطل على مخارج البترول العربي ، ومداخل الثروة النفطية بالتالي ، اليس مهما أن نحاول استيعاب دروس التجربة ، وان نتعلم منها ما يفيدنا ؟ .

وقد كانت محاولة الفهم هذه هي التي دفعتني الى الذهاب الى أفغانستان ، حيث قدر لي أن أكون الصحفي العربي الوحيد الذي أتيح له أن يتواجد في كابول ، بعد أيام قليلة من أنهاء حكم الاسرة الدورانية الذي أستمر طوال قرن ونصف قرن ، كما أتيح لي أن أكون الصحفي العربي الوحيد الذي ألتقى بالرئيس الافغاني الجديد ،

محمد نور تراقي ، وان أجري معه حوارا طويلا .

وقدر لهذه التجربة ان تتحول الى كتاب في النهاية ، وان مضت البداية في أتجاه مغاير الى حد ما . ذلك أني ذهبت الى أفغانستان بعد ثورة أبريل (نيسان) ٧٨ ، ممثلا لمجلة « العربي » الكويتية ونشرت على صفحاتها حصيلة رحلتي في عددين متواليين في العام ذاته .

وهذه الملاحظة أسوقها التزاما بالامانة من ناحية ، ولكي ألفت النظر - من ناحية أخرى - الى أن هذا العمل ليس كتابا بالمعنى الشائع ، ولكنه تجربة صحفية متصلة بحدث هام وقع في زمان ومكان محددين . الامر الذي يتسع لاحتمالات تغير وقائع الزمان وشخوصه ، ولكنه لا يسقط قيمة الدرس والعبرة .

فقط يتفق هذا التقرير الصحفي مع الكتاب في أن فيه من « التأليف » الشيء الكثير . أعني التأليف بالاصل اللغوي للكلمة ، وهو الجمع والرصد وقراءة الواقع والتاريخ ، وليس بالمعنى الشائع الذي يعطي أنطباعا بالخلق والابتكار .

وثمة ملاحظة أخرى يهمني تسجيلها ، هي أنني تحدثت في فصل لاحق عن تأثيرات ما جرى في أفغانستان على جاراتها ، وكان طبيعيا أن تكون هناك اشارة الى ايران . وكان تقديري أن القوى المنظمة القادرة على الحركة والانتفاضة هي قوى اليسار وعلى رأسها حزب تودة الشيوعي . وهو تقدير لم يكن صحيحا - كما ثبت فيما بعد - لان

القوى التي قادت الثورة في أيران كانت بالدرجة الاولى متمثلة في الحركة الدينية وعلى رأسها الامام آية الله الخميني .

وهذا الخطأ في التقدير يكشف عن عدم أدراك كاف بالقوى الحقيقية في الساحة الايرانية وهو ما أعترف به . وازعم أنني لست وحيدا في هذا الخطأ ، لان الاحداث كشفت عن أن قوى أكبر ومؤسسات أهم وأخطر من « السافاك » الايرانية الى المخابرات المركزية الامريكية ، أخطأت مثلي في الحساب ، وجاءتها الضربة من حيث لا تحتسب !

على كل حال فان ذلك القصور يحفزنا الى ضرورة الاقتراب أكثر من الواقع المحيط بنا والخروج اكثر من تلك العزلة الفكرية التي نعيشها .

ان هذا التقرير الصحفي ينقسم الى جزأين ، الاول يحاول تقديم الحدث وتقييمه ، فيما اسميته « رحلة في الزمان » ، والثاني يحاول أن يعرف بأفغانستان البلد فيما أسميته « رحلة في المكان » ، أي أنني حاولت أن أقدم الحدث والمسرح الذي شهد فصوله المثيرة . وقد أقتضى تقديم الحدث أن تكون المعالجة في أطار زمني محدود ، كما قلت ، وهو الوقت الذي ولدت فيه الثورة وكانت لا تزال تحبو في خطواتها الاولى . وخلال العام الذي أنقضى جدت أشياء جديرة بالتسجيل هي :

أولا : انفراط تحالف قوتي اليسار الاساسيتين اللتين قامتا بالثـورة ، وهما حزبا « الخلق » و« بارتشام » ، وانفرد حزب الخلق الذي يقوده الرئيس تراقي بالسلطة ، بينما واجه زعماء الحزب الاخر مصائر تتراوح بين الابعاد الى الخارج ، أو الاعتقال والسجن في الداخل .

ثانيا : ظهور مقاومة مسلحـة نظمتهـا عنـد مناطـق الحـدود بعض التجمعات التي ترفع راية الاسلام ، والتـي توحـدت تحـت اسم « الحزب الاسلامي » . ويلقى هؤلاء الثوار المسلمـون عناية خاصة من الصحافة الغربية ، لا تخلو من تأييد وتشجيع وابراز . وهي ذاتها الصحافة التي لا زالت تقف موقفاً معادياً من الثورة الاسلامية في أيران !

على أنه اذا قدر للثورة الاسلامية في أيران أن تستقر وتتقـدم في مسيرتها ، فان ذلك سوف يحدث انعكاسات لا بد ستؤثر بشكل أو آخر على حركة المقاومة الاسلامية ضد النظام القائم في أفغانستان . وان كانت المعادلة لا تحتمل التبسيط ، لان موسكو حليفة كابول ، والجارة المشتركة لكل من أفغانستان وايران ، سوف يكون لها موقف وربما تصرف وقتئذ .

بقيت ملاحظة أخرى ، هي أنني خلال جولتي ، وفيما كتبته عن أفغانستان الزمان والمكان ، لم أشر الى جمال الدين الافغاني ، رغم

أنه يمثل مكانة خاصة لدى أكثر المثقفين والمهتمين بالتحديث والتنوير في الفكر الاسلامي ، ورغم أنني زرت قبره المقام داخل حرم جامعة كابول . وقد دفعني الى هذا الصمت ازاء الافغاني أن هناك آراء ظهرت مؤخرا ـ ويبدو أنها صحيحة ـ تقول أن الرجل ليس أفغانيا ، ولكنه أيراني . وان « الافغاني » هو أسم شهرة وليس أسم اسرة ، وأن أسمه الحقيقي هو « سيد جمال الدين الاسد أبادي » .

أخيرا ، أرجو الا أكون قد ذهبت بعيدا في رحلة أخرى ، مختلفة عن الرحلة السياسية التي هي موضوعنا . لكني أردت أن أسجل هذه الملاحظات والايضاحات في البداية ، ليكون الجميع على بينة ، فلا يظلم أحد ، لا القارىء ، ولا « المؤلف » ، ولا « الكتاب » . !

القسم الأول

رحلة في الزمان : الحدث والحديث

" زنده باد انقلاب "

دق جرس التليفون في حجرتي بفندق كابول ، وقال المتحدث بالانجليزية ، ان « الرئيس » سيكون في انتظارك الساعة التاسعة صباحا . . وادارة المراسم ترجو ان تحضر الى مقر وزارة الخارجية في الثامنة والنصف ، ليقودك مدير الاستعلامات الى مبنى الرئاسة المواجه للوزارة . .

وقبل أن اغادر الفندق في الساعة الثامنة ، رن جرس التليفون مرة أخرى ، وقال المتحدث : معذرة ، « الرئيس » شغله اجتماع طارىء لمجلس الثورة ، وقد تأجل الاجتماع الى الحادية عشرة . . وكرر نفس التعليمات الخاصة « برجاء » ادارة المراسم . .

لكن صاحبنا هذا عاد في الساعة العاشرة ، ليكرر الاعتذار لان

اجتماع مجلس الثورة طال أكثر مما كان متوقعا . ثم اكد لي أن الساعة الثانية ظهرا ستكون هي الموعد النهائي بيني وبين الرئيس . .

عاودني شعور بالضيق والاحباط لازمني منذ بداية الرحلة . وتضاءل أملي في أن التقي برئيس مجلس الثورة ، إذ ما دام موعدنا تأجل مرتين ، فما الذي يمنع من أن يكون التأجيل غطاء مهذبا للاعتذار . خصوصا بعدما قيل لنا أن قيادة الثورة غير سعيدة بما تكتبه الصحافة العالمية ، وأن رئيس مجلس الثورة لم يعد متحمسا للقاء الصحفيين عموما ، والصحفيين الغربيين بوجه خاص .

لكني في الوقت ذاته فوجئت بهذا الروتين الغريب على أسلوب ثورة في العالم الثالث . اذ طلب مني في البداية أن أكتب اسئلتي ، وأقدمها الى ادارة الاستعلامات ، التي ترفعها بدورها الى ادارة المراسم . . التي تقدمها الى سكرتارية الرئيس ، حتى تعرف طريقها الى الرئيس ذاته . . ثم ها هو مندوب الخارجية يجري اتصالا مرة واثنتين ليعتذر ويؤجل الموعد ، ثم يذكر بتعليمات المراسم . .

وقد عودتنا ثورات العالم الثالث على عكس ذلك تماما . . فلا أسئلة مسبقة ولا استعلامات ولا مراسم ولا سكرتارية . والصحفي وحظه ، اذا تعرف على مسئول قريب من الرئيس او السلطة انفتحت له الابواب ، واذا ضل هذا الطريق فعليه أن ينتظر أن تقوم ثورة اخرى يستطيع أن يقيم علاقة بأحد أطرافها !

وفي تجربة شخصية سابقة ، طلب مني ان انتظر في الفندق الى جوار التليفون ، حتى ابلغ بموعدي مع رئيس شاب قاد ثورة ناجحة في احدى الدول العربية . وأمضيت أربعة أيام حبيس الفندق وعيناي مركزة على جهاز التليفون وأذني تسترق السمع لأي رنين . . ولم أقابله الا عندما ذهبت في « تاكسي » الى مقر الحزب ، وأبلغت أحد رفاقه ، فأخذني من يدي اليه بعد نصف ساعة ، وكان يعقد اجتماعا في مجلس الوزراء .

لهذا كانت البيروقراطية التي لقيتها في كابول باعثا على قدر من الاطمئنان ، رغم الضيق والاحباط . . على الاقل كان هناك آخر « على الخط » يؤجل ويذكر بالمراسم !

لقد كانت العملية مغامرة من بدايتها . .

فالقائم بالاعمال الأفغاني في الكويت رفض إعطاءنا تأشيرة دخول ، قائلا أن التعليمات لديه تمنع السماح بادخال أي صحفي الا بعد موافقة السلطة في كابول . وقال لي صراحة أنه أرسل الى وزارة الخارجية ، لكن لا أحد يعرف بالضبط من صاحب القرار . فالكل مضطرب ، ورؤساؤه لا يعرف ما اذا كانوا في مراكزهم أم لا . وما علينا الا أن ننتظر الرد .

كان القائم بالأعمال الافغاني تجسيدا حقيقيا لمشاعر الموظفين الذين كانوا يعملون في خدمة النظام السابق . . فهو لا يعرف من هي السلطة ، ولا يعرف ما اذا كان سيبقى في مركزه أم لا .

أرسلنا برقية واثنتين من مجلة « العربي » ، ولم نتلق رداً . .

عندئذ قررنا أن نواجه الأمر الواقع . فنذهب الى طهران ، علنا نستطيع أن نحل المشكلة من هناك ولو بالاتصال الهاتفي ، وعلى أسوأ الفروض ، فاننا نواصل السفر الى كابول ، خصوصا واننا كنا قد ابلغناهم بموعد وصولنا في البرقية الثانية ، وطلبنا ترك التأشيرة باسمنا في مطار كابول .

لكننا فوجئنا بان الاتصالات التليفونية في طهران مقطوعة مع كابول . فضلا عن أن شركة الطيران الافغانية « ايريانا » لديها تعليمات بعدم حجز اي تذاكر الا للحاصلين على تأشيرات دخول !

وفوق هذا وذلك ، فان السفير الافغاني في طهران كان من أعضاء أسرة الرئيس السابق داود ، وكان مستشار السفارة والسكرتير الأول على علاقة بهذه الاسرة . والثلاثة تركوا السفارة ، واختفوا خوفا على حياتهم . أي أن المسئولين الثلاثة الأول في السفارة الافغانية غائبون ، مما رتب نتيجة أخرى اكتشفناها مؤخرا ، فبسبب هذا الغياب لم ينقل الى كابول البيان الذي أصدرته حكومة الكويت في اعقاب الانقلاب ، وكان بمثابة اعتراف ضمني بالنظام الجديد . . اذ

قال وزير الدولة الكويتي عقب جلسة لمجلس الوزراء أنه تمت مناقشة ما جرى في أفغانستان ، واعتبر التغيير مسألة داخلية لا تستوجب اعترافاً جديداً .

وفهمت فيما بعد أنه كان هناك تيار عربي يدعو الى التشدد والضغط على أفغانستان ، بعد المعلومات الأولى التي خرجت من كابول عن اضطهاد رجال الدين واعدام أحدهم . ولما لم تكن هذه الانباء مؤكدة ، فقد أرادت الكويت فيما يبدو أن « تمسك العصا من الوسط » ، كما يقولون .

اي انني كنت قادما من بلد هو عند رجال الثورة الجديدة لم يعترف بنظامهم . بينما الحقيقة ان الاعتراف الضمني اذيع ، لكن قنوات توصيله لم تكن سالكة .

وكان هذا كله يعني أن طريقنا الى كابول بدا مسدودا تماما . .

وكان هذا هو الإحباط الأول !

لكن أملاً جديدا بدأ يظهر عندما قيل لنا أن أحد مسئولي السفارة الكويتية في طهران ، له علاقة ودية بواحد من رجال السفارة الافغانية الذين لم يختفوا من مكاتبهم بعد . واكتشفنا أن هذا الشخص هو المسئول الرابع . . أي أنه صار في ظل الاضطراب القائم داخل السفارة هو الشخص الاول !

وبعد اتصال تليفوني مع الدبلوماسي الافغاني « الرابع الاول » امكن الاتفاق على محاولة استخدام اللاسلكي في الاتصال بكابول ، للسماح لنا بالدخول .

وفي نهاية يوم شاق مليء بالترقب والسؤ ال من جانبنا عن « الرد المنتظر » ، أبلغنا بأن ثمة موافقة على سفرنا ، وأن تأشيرة الدخول تنتظرنا في مطار كابول .

لم تتم فرحتنا ـ في احباط ثان ـ لان مسئول السفارة الافغانية رفض أن يثبت التأشيرة على جوازي سفرنا ـ أنا وزميلي اوسكار متري مصور « العربي » ـ وكان رده أن التأشيرة تنتظرنا هناك . ولم أفهم لرفضه سببا ، إذ أنه هو الذي تلقى الموافقة ، وهو الذي أبلغنا بها ، ومع ذلك فهو ذاته الذي يمتنع عن أثبات هذه الموافقةعلى جوازي السفر .

ولكنه الخوف الذي ينتاب الجميع في مثل هذه الفترات الدقيقة . .

وكان طبيعيا أن يرفض مسئول شركة الطيران الافغانية الاعتراف بشهادتنا ، رغم أننا اقسمنا أمامه باغلظ الايمان على أن التأشيرة تنتظرنا في مطار كابول . وكان رده بسيطا ومنطقيا : اذا كانت الموافقة قد تلقتها السفارة الافغانية عبر اتصار لاسلكي كما تقولون ، فلماذا رفضوا منحكم التأشيرة ؟

ومضينا نجرجر أقدامنا ونحن نعاني من إحباط ثالث . .

ذهبنا الى السفارة وروينا القصة للمسئول « الرابع الاول » ، واستخدمنا قدرا من الخبث في عرض الموضوع ، استفز صاحبنا ، خصوصا وأننا افهمناه أن كلامه لم يلق أي تصديق . ويبدو أنه أراد أن يثبت اهميته ويمارس صلاحيات المسئول الاول ، فنهض منفعلا ، ورفع سماعة التلفون آمرا سكرتيرة السفير (وقد كنا نجلس في حجرة مكتبه) بأن تستدعي على التلفون مدير شركة طيران « ايريانا » الافغانية . .

جاء الرجل على الخط ، فخاطبه بكلام لم نفهمه ، اذ استخدم لغة الباشتو المحلية ، لكن لهجة الامر كانت واضحة في الحديث . . أعاد الرجل السماعة وقال لنا بهدوء شديد أن كل شيء قد انتهى ، وانه اصدر « التعليمات » اللازمة لمدير شركة الطيران ، وأعطانا رقم تليفون منزله لنتصل به اذا لزم الامر . .

شكرناه ، وتم اللازم ، وذهبنا لنلحق بالطائرة الافغانية في الرابعة صباحا ، معتقدين ان « النحس » الذي لازمنا قد انفكت عقدته . .

لكن إحباطا رابعا كان في انتظارنا بالمطار !

اذ تعطلت الطائرة ، وأبلغنا بعد ٤ ساعات من الانتظار بأن الرحلة الغيت ، وأن هناك رحلة أخرى لشركة الطيران الايرانية الى كابول ، تقوم بعد ٢٤ ساعة .

أبلغنا مدير شركة الطيران الافغانية بذلك ثم أختفى ، حتى لا نطالبه بأية التزامات من تلك التي تقرر القواعد الدولية في معاملة ركاب الطائرة التي يتأخر موعد اقلاعها !

ولم يكن هناك مفر . لنعد إلى طهران ، ونحجز تذاكرنا على الايرانية ، بدلا من الافغانية . .

غير أن شبح اليأس بدأ يسيطر علينا ، خصوصا وأننا عندما عدنا الى المدينة ، كانت مظاهرات الطلبة تملأ الشوارع الرئيسية هاتفة ضد الشاه ، وكانت الميادين قد تحولت الى ثكنات عسكرية ، مليئة بالسيارات المصفحة والجنود لابسي الأقنعة الواقية من الغاز . بينما كل المحال التجارية مغلقة ، والعاصمة مصابة بالشلل .

أطل هاجس النحس وقلت لنفسي : ولا « الايرانية » ستطير غدا !!

لكنها كانت مفاجأة لنا صبيحة اليوم التالي . . فقد طارت الايرانية ، حتى أننا لم نصدق أن رحلتنا الى كابول قد بدأت . .

كنا عشرة على الطائرة ، ـ وكان هذا الرقم يمثل ركاب رحلتين لا رحلة واحدة . « الافغانية » الملغاة والحاجزون على « الايرانية » من قبل . وكان أغلب المسافرين من الدبلوماسيين الاجانب ، الغربيين والشرقيين إذ أنه بعد الانقلاب ، حدث هجوم دبلوماسي غربي على

كابول ، خصوصا وأن الانباء كانت تشير الى هجوم دبلوماسي وغير دبلوماسي سبقه الى العاصمة الافغانية !

بعد ساعة ، أعلن قائد الطائرة اننا قد وصلنا الى كابـول ، وأننـا سنهبط بعد دقائق . . . من النافذة بدت افغانستان تلاً هائلا تبرز منه رؤ وس جبال عاليه ، تغطيها الثلوج ، وتـكاد تلتصـق بالسحـاب الابيض على البعد وكان مثيرا هذا المشهد الـذي رأينـاه ـ خليط من الجبال والوديان والانهار والغابات الكثيفـة ، والمساحـات الخضراء التي تبدو فيها قطعان الماشية كما لو كانت اسراباً من النمل . . كانت الطبيعة هي البادية أمامنا الامر الذي يوحي على الفور بأن هذه بلد بكر لم تستثمر ولم تستغل بعد . . حتى عندما مالت الطائرة في اتجاه الهبوط ، ورأينا كابول عن قرب ، بدت المدينة شديدة التواضع ، بل بدت قزماً الى جوار جبل شاهق لصيقٍ بها . .

في المطار كانت تنتظرنا مفاجأة جديدة !

سألت ضابط الجوازات عن إسمـين أدرجـا ضمـن المسموح لهـم بالدخول ، فراجع قائمة امامه واعـاد قراءتهـا مرة ثانية ، ثم رفـع رأسه ، وقال بهدوء : معذرة ، لا وجود لإسميكما في القائمة . .

كأن صاعقة إنقضت علينا . .

شرحت القصة للضابط ، ونقلت تأكيدات مسئول السفارة الافغانية في طهران ، وطلبت وأنا احـاول أن اخفـي اضطرابـي وشعـوري

الشديد بالاحباط ، أن أجري اتصالا تلفونيا بأي مسئول في وزارة الخارجية او الاعلام .

استمع الرجل إلى كل ما قلته من معلومات وتأكيدات ، ثم قال بنفس الهدوء ، ولماذا تعذب نفسك بالبحث عن مسئول هنا أو هناك . اذهب الى هذه النافذة ، وادفع سبعة دولارات ، وستحصل على تأشيرة لمدة اسبوعين !

قالها ببساطة شديدة وهو يشعل سيجارة أمريكية ، وقد تحول ببصره الى قراءة عناوين جريدة صباحية وضعت الى يمينه .

تسمرنا في مكاننا . واحسست أن شلال مياه باردة قد انفتح فوق رأسي فجأة .

وبعد لحظات صمت بين اليأس والرجاء ، اتجهنا الى تلك الطاقة الصغيرة ، التي علقوا بها مفتاح الدخول الى افغانستان . .

وفي تاكسي روسي عتيق من طراز « فولجا » ، ألقينا جثثينا وقلنا للرجل بينما اصواتنا هدها الاعياء : فندق كابول من فضلك . .

عندما وصلنا ، كانت رائحة الثورة التي حدثت تفوح في سماء كابول . لافتات كبيرة تستقبل القادمين من المطار ، كتبت عليها عبارة « زنده باد انقلاب » أي « يحيا » الانقلاب . وبخط كبير

كتبوا . . « ٧ ثور » تاريخ الاطاحة بحكم الرئيس داود في ٢٧ ابريل (نيسان) ، وهو شهر « ثور » بالتقويم الشمسي الذي يتبعونه . الجيش بجنوده ومصفحاته لا يزال في الشوارع . وحول وزارة الدفاع كانت تقف ثلاث دبابات محترقة منذ ليلة الثورة ، يلتف حولها الافغان بفضول ويتقافز حولها الصغار . وحظر التجول قائم فيما بين الحادية عشرة مساء والخامسة صباحاً ، لكن الشوارع خالية منذ التاسعة والمحال التجارية مغلقة من السابعة . وبيت الرئيس السابق محمد داود لا يزال مغلقا على اللحظة التي أسدل فيها الستار على عهده ، الساعة السادسة والنصف من صباح الجمعة ٢٨ ابريل (نيسان) ، عندما أطلق عليه النقيب إمام الدين الذي لم يتجاوز ٢٧ عاما ، طلقات مدفعه الرشاش ، إثر اصابته برصاصة في ذراعه اليمنى ، أطلقها « نعيم » شقيق الرئيس السابق اثناء حوار كان يجري بينهما حول الاستسلام .

كان افطار الرئيس داود وأسرته لا يزال موضوعا على المائدة المستطيلة لم يمس . . شرائح اللحم البارد والكافيار وأنواع الجبن المستورد وعصير الفاكهة . وكانت اسطوانات الموسيقى الهندية على حالها مبعثرة في حجرة الرئيس الخاصة ، بينما صف طويل من زجاج الويسكي (١٠٠ زجاجة) يثير الانتباه الى جوار حجرة النوم !

المدينة تتحدث همسا ، والترقب والانتظار في كل العيون .

والصحف توالي نشر بيانات وقرارات التأييد للثورة . الاطباء في جلال أباد قرروا تحديد ساعتين لعلاج الفقراء مجانا بعياداتهم كل يوم . المدرسون في احد معاهد قندهار قرروا تغيير اسم المعهد الى « انقلاب هاي سكول » (لاحظ ان لغة الباشتو تضم نسبة غير قليلة من الكلمات الانجليزية والعربية) . وتجار السجاد اعلنوا تخفيضاً في الاسعار بنسبة ٧٪ . . وهكذا .

الصحفيون الاجانب تائهون أمام الطرق المسدودة في كل اتجاه ، وممنوعون من مغادرة كابول الى أية مدينة أخرى داخل افغانستان . بل إن الجميع ممنوعون من مغادرة افغانستان بأسرها الا بعد الحصول على تأشيرة خروج . وبعد هذا كله تنتظرهم مذبحة في المطار ، حيث تفض كل ورقة مطوية و يدقق في كل ثنية قميص !

والدبلوماسيون المقيمون وقد أذهلتهم المفاجأة ، يضربون أخماسا في اسداس . ذلك أن القابضين على السلطة قادمون من المجهول . من قاع المجتمع الافغاني . بحواريه الضيقة و بيوتها المتهدمة التي لا تصل اليها المياه ،وتسمم رائحة طفح المجاري كل ركن فيها .

قال لي أحد السفراء : لقد إنهار كل ما بنيته من علاقات ومخططات خلال ثلاث سنوات . وعلي الآن أن أبدأ من الصفر تماما ، فنحن نتعامل مع أشخاص لا نعرف عنهم شيئا ، ونظام تضاربت حوله الأقاويل . ولا نفهم بالضبط أين مركز القوة فيه ، المكتب السياسي

ام اللجنة المركزية ، أم مجلس الثورة أم مجلس الوزراء ؟

ومصدر المعلومات المتاح أمام الجميع هو راديو كابول ، الذي يذيع نشرتين اخباريتين يوميا باللغتين الانجليزية والفرنسية ، ثم ان هناك ثلاث صحف (كانت ثمانيَ قبل الثورة) ـ « فارياب » وتصدر بلغة « الباشتو » وهي خليط من الأردية والانجليزية والعربية ـ « أنيس » التي تصدر بلغة « الداري » الأقرب الى الفارسية ـ وصحيفة « كابول تايمز » التي تصدر بالانجليزية .

البضاعة الوحيدة الرابحة هي الشائعات . في كل ساعة تسمع شائعة مختلفة . الملا نور شاه امام مسجد بلوخشتي (اكبر مساجد كابول) أعدم لأنه عارض الثورة . جول مشاه خطيب جلالْ اباد دعا الى اعلان الجهاد . اختفى وزير الدفاع العقيد عبد القادر لانه لم يكن عضوا بالحزب . عثر على جثة طيار روسي هبط بالباراشوت في أول أيام الثورة . الحكومة الامريكية قررت نقل سفيرها في كابول . أُلغي اثنان من البرامج الدينية من الاذاعة . صناعة السجاد ستؤمم . .

وهكذا ، شائعات بغير حصر ظللنا نسمعها كل صباح ، ثم نكتشف في صباح اليوم التالي أنها غير مؤكدة ، باستثناء قرار نقل السفير الامريكي ، الذي كان صادرا قبل الثورة ، وتأخر تنفيذه بعد قيامها .

وكان واضحا أن الجميع يبحثون عن المعلومات الصحيحة عن الثورة ورجالها . والذين تابعوا احداث ٢٧ ابريل (نيسان) من الخارج لا يقلون جهلا عن الذين تابعوها من الداخل .

ذلك أن الصورة التي نقلت عن الثورة في الخارج انطلقت كل خطوطها وملامحها من نقطة واحدة ، أنها ثورة « ماركسية » . أي أن ما شغل الجميع هو « لون » الثورة ، الأمر الذي حجب وقائعها الى حد كبير ، بل شوه هذه الوقائع بعمد أو بغير عمد .

وكان أول ما تناقلته وكالات الانباء العالمية أن قائد الثورة هو الكولونيل عبد القادر ، وزير الدفاع الحالي ، ولم يكن هذا صحيحا ، رغم أن دور الكولونيل هو الذي حسم المعركة ليلة الثورة لصالح النظام الجديد . إذ قاد هجمات سلاح الطيران على قصر الرئيس السابق محمد داود ، مما أسكت مقاومة الحرس الجمهوري ، ودفعهم الى التسليم .

كان الكولونيل عبد القادر من الذين وقفوا الى جوار الرئيس السابق داود ، في انقلابه على الملك محمد ظاهرشاه عام ٧٣ ، ولكن الرئيس أراد تقليص دوره فعينه مديراً « لمسلخ » لفترة اعتبرت تأديبا له ، ثم اعاده الى الجيش . . وتسلم الرجل منصبه وكله سخط على داود . وكان سخطه هذا هو الذي رشحه ليؤدي دورا في إنجاح الثورة الجديدة . وعندما حانت ساعة الثورة ، لم يتردد في اصدار الاوامر

اللجنة المركزية هي الدكتورة عنايات ، التي ينطقون اسمها « ناهيتا » (السبعة في وزارة الثورة والدكتورة عنايات هي وزير الشئون الاجتماعية) .

وأعلن في راديو كابول أنه تم اعتقال السبعة ، وأن مجلس الوزراء « سينظر في أمرهم » . وكما قال لي أحد الوزراء الجدد ، أنه صدرت التعليمات الى حكام الاقاليم لتنظيم حملة شعبية (برقيات التأييد والتحريض التي نعرفها) تطالب باعدام « الخونة السبعة» . ولسوء حظ الرئيس داود ، فان الشخص الوحيد الذي تأخر اعتقاله كان هو المسئول عن تنظيم الحزب داخل الجيش ، وهو السيد حفيظ الله أمين نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الحالي . وقد اتاح له ذلك ، بعدما انكشفت نوايا الرئيس داود ، أن يضع مع العسكريين خطة الانقلاب . وفي لحظة اعتقاله ، أرسل ورقة مع ابنه ، يحدد فيها اشارة البدء .

وكان قد أعلن أن مجلس الوزراء سيجتمع برئاسة الرئيس داود يوم الخميس « ٧ ثور » ٢٧ ابريل (نيسان) ليقرر مصير المعتقلين . وعلى حد قول الوزير الافغاني ، فقد كان مقررا تنفيذ حكم الاعدام فيهم يوم السبت ٢٩ ابريل (نيسان) . ولذلك تحدد موعد الانقلاب في الثامنة من صباح نفس يوم اجتماع الوزارة - في وضح النهار - ليصفى حكم الرئيس داود - قبل ان يصفي هو خصومه . .

بقتل قائد سلاح الطيران ، واشراك طائرات الميج السوفيتيه لانقاذ الموقف . خصوصا وان المدفعية التي بدأت قصف الرئاسة منذ الساعة الثانية عشر ظهرا ، لم تفلح في إرغامه على التسليم حتى السادسة مساء ، وهي ساعة ظهور طائرات الميج في سماء العاصمة .

ثم إن هناك خلفية الثورة التي لم ينشر جانب كبير من تفصيلاتها . . ذلك أن الرئيس داود بدأ عهده إثر انقلاب عام ٧٣ الذي قام به بتعاون وتأييد من جانب اليسار الافغاني ، حتى قيل أن نائب رئيس مجلس الثورة الحالي بربراك كارمل ، هو الذي كتب البيان الأول لانقلاب الرئيس داود . كما كان بعض وزراء أول حكومة لداود من المنتمين الى اليسار . وفي طريقه للانفراد بالحكم ، وجه الرئيس داود ضربات عديدة الى القيادات الدينية ، واعتقل كثيرين من هذه القيادات . ثم استدار بعد ذلك ليضرب اليسار ، وهي محاولة ظهرت بشكل واضح بعد اغتيال أحد زعمائه « مير أكبر خيبر » في منتصف إبريل (نيسان) الماضي . . وكانت جنازته الكبيرة اعلاناً لتحدي سياسة الرئيس داود . وعندما صلوا على الزعيم اليساري المقتول ، في مسجد بلوخشتي الكبير ، كان الجمع غفيرا بدرجة أثارت الانتباه . وطوال يومي العزاء في المسجد - وهي عادة أفغانية - كان التحدي سافرا . . وازاء ذلك قرر الرئيس داود توجيه ضربة أكبر لحزب « الخلق » ، فامر باعتقال سبعة من زعمائه بينهم الرئيس الحالي نور محمد تراقي ونائبه بربراك كارمل ، وطبيبة من أعضاء

ونجحت المحاولة . .

وكان أول ما فعله « الابناء في الجيش » كما يصفهم الرئيس تراقي ، بعد حصار القصر الجمهوري ، هو اطلاق سراح المعتقلين السبعة ، قبل أن يصدر داود تعليماته بإعدامهم . ومن السجن خرجوا الى قيادة الثورة ، التي انتهت بولادة « جمهوري ديموكراتيك افغانستان » !

أي أنها أصبحت ثالث الديمقراطيات في العالم الاسلامي ، بعد الجزائر واليمن الجنوبية ، وإن كانتا من الديمقراطيات « الشعبية » .

في البدء حاولت التنقيب في بيانات الثورة والحزب ، في محاولة للتعرف على هوية الثورة . .

كان واضحا من قراءة بيانات النظام الجديد أن أول هذه البيانات ركز في سطره الأول على « احترام مبادىء الاسلام » ، وفي السطر الثاني على « تحقيق الديمقراطية » . . كذلك لاحظت أن إذاعة كابول ما زالت تفتتح إرسالها كل صباح بتلاوة القرآن الكريم والحديث الديني ، بينما يفتتح رئيس مجلس الثورة كل خطبه بـ « باسم الله الرحمن الرحيم » . .

وفي الوقت ذاته ـ ورغم الاجماع على شبهة الانتماء الماركسي للنظام الجديد ـ فانني لم أجد في كتابات حزب « الخلق » المعلنة اية اشارة الى الماركسية سواء كان ذلك في برنامج الحزب « المانفستو » الذي

صدر مع تأسيسه سنة ١٩٦٥ ، أو في خطة عمل الثورة ، التي أعلنها الرئيس نور محمد تراقي في الشهر الماضي وصدرت مقدمتها « باسم الله الرحمن الرحيم » .

فقط ، ثمة خيط رفيع في « المانفستو » يؤيد هذه الشبهة ، لكنه لا يعد دليلا قويا ، وهو يتمثل في عبارة وردت على صفحته الأولى تقول : إن المشكلة الاساسية في التاريخ المعاصر ، هي في الصراع بين الاشتراكية الدولية والاستعمار الدولي ، وهو الصراع الذي بدأ مع ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى .

هذه الظواهر المحيرة ، كانت وراء العديد من الاسئلة التي حاصرت أول مؤتمر صحفي عقده الرئيس محمد تراقي في الاسبوع الأول لقيام الثورة ، حتى أن مندوب « الجارديان » الانجليزية سأله : هل صليت ظهر اليوم ؟ . . وكان رد رئيس مجلس الثورة أن هذه مسألة شخصية لا يحق لأحد أن يسأل الاخر عنها . .

الرئيس تراقي قال لي ...

حان موعدي مع الرئيس تراقي . وتفاءلت خيرا لان جهاز التليفون ظل صامتا لا ينطق . وقلت ، لا بد من لحظة يزول فيها النحس ، إذ ليس معقولا أن يلازمنا هكذا منذ بداية الرحلة . .

في الواحدة والنصف بالضبط كنت على باب وزارة الخارجية الأفغانية . .

كان العسكر جالسين في غرفة الاستعلامات ، ومدافعهم الرشاشة ممددة على المناضد المتناثرة ، بينما أعينهم يطل منها الارهاق والتعب . فلم تمض ثلاثة أسابيع على الثورة ، والطوارىء ما زالت معلنة ، ومنطقة الوزارات والرئاسة - وهي الاهم - بمثابة ثكنة عسكرية ، الجيش يتولى فيها كل مهام الامن والحراسة . بل إنه في

اعقاب الثورة مباشرة كان الجيش يقوم بهذه المهمة حتى بالنسبة للسفارات والبنوك ، لأن قادة الثورة لم يطمئنوا في البداية الى ولاء الشرطة ، فمرت سيارات الجيش بسرعة في ثاني يوم للثورة ، وجردت كل الشرطة المعينين للحراسة من أسلحتهم ، ثم عادت فحملتهم جميعا « لدواعي الأمن » . . وبعد أن استقر الموقف أعيد رجال الشرطة ، وأعيدت اليهم أسلحتهم . اما الوزارات والمرافق الحيوية مثل الاذاعة والتليفزيون ، فقد بقيت تحت حراسة الجيش . . على الاقل حتى وصلنا الى كابول .

عبرنا الطريق الى مبنى رئاسة الجمهورية . .

مررنا بجماعات كثيفة من الجنود حاملي المدافع الرشاشة ـ أيضا ـ في حديقة القصر الجمهوري ، بينما أربع دبابات موزعة في مواضع مختلفة من الحديقة ، وقد تمدد البعض فوقها في استرخاء .

لقد اصبحت فرقة الجيش المدرعة (رقم ١٥) التي بدأت الثورة مع الفرقة الرابعة ، بمثابة حرس جمهوري ، خلفا للفرقة السابعة التي كانت تحرس الرئيس داود ، وقاومت الانقلاب مقاومة عنيفة . وقد قيل أنها أبيدت بجنودها الـ ١٢ الفا ، ولكن الواقع أنها استسلمت بعد تدخل الطيران في « المعركة » . وكانت إشاعة ابادة هذه الفرقة هي السبب فيما تردد من أن ضحايا الثورة بلغوا الألوف ، حتى نشرت بعض الصحف أنهم ١٠ آلاف . الامر الذي أعطى انطباعا بأن الدم

يسيل في شوارع كابول ، ودفع البعض الى اقامة صلاة الغائب على ارواح الضحايا !

استقبلنا مدير مكتب الرئيس تراقي ، واستأذننا بأدب شديد أن ننتظر لحظات . . .

هنا يجلس رئيس مجلس الثورة اذن ، بعد الرحلة الطويلة التي قطعها ، منذ أن كان عاملا في فرع إحدى شركات الفواكه الأفغانية في بومباي ، لم يستطع أبوه الراعي أن ينفق عليه ، فسلمه للشركة في الثلاثينات ومات . وظل يتقاضى ٤٥ روبية في الشهر ، ينفق منها ست روبيات على الاكثر . ويرسل الباقي الى اسرته . وبالروبيات الست ـ حسب روايته ـ كان يأكل ويلبس ويسكن ، ويواصل تعليمه في مدرسة لاحدى بعثات التبشير . ويظل يكافح حتى يصبح موظفا حكوميا ، يتدرج من صحفي في وكالة الانباء الرسمية « بختار » ، تتعدد نشاطاته بين الادب والترجمة ، ويحاول زيادة دخله فيعمل مترجما للسفارة الامريكية . ثم يعين رئيسا لتحرير الوكالة الأفغانية ، وينقل ملحقا صحفيا لسفارة بلاده في الولايات المتحدة ، لكنه لا يكمل ستة اشهر ، فيعاد مفصولا من الوظيفة لأنه انتقد النظام الحاكم في بلاده . وطوال الـ ٢٧ سنة الاخيرة ، يلقي بنفسه في بحر السياسة كاتبا واديبا ، ثم رئيسا لحزب سري أطلق عليه اسم « الخلق » أو الشعب الديمقراطي بعد الترجمة .

انفتح الباب واستقبلنا الرئيس نور تراقي ، بشعره الأشيب الذي ينم عن عمر تجاوز الستين ، وتجاعيد وجهه التي حفر معظمها في المعتقلات وأوكار العمل السري ، وبصوت هادىء وكلمات مختارة ، قال الرجل بعد مقدمة الترحيب والاطمئنان على راحتنا : لقد تلقيت أسئلتك وكتبت ردا عليها . ها هو الرد . شكرا لك .

صدمت . وقلت وأنا اقاوم شبح اليأس وقناعتي تزداد بأن « النحس » لا يزال يطاردنا ، وان الاحباط قد صار شعارا لهذه الرحلة : أرجو ان تأذن لي بقراءة الرد . وأن اناقشك فيما يحتاج الى ايضاح فيه ، حتى لا اسيء فهم ما قلت ، وهو ما لا أظنكم ترضون عنه .

يبدو أنه تصور أن لقاءنا سيكون مقصورا على تسليم الرد المكتوب ، والتقاط بعض الصور . لكنني قررت أن أقاتل ، وأن أفرض نفسي قدر الامكان ، حتى أحصل على اجابة واضحة للاسئلة التي طرحتها . فضلا عن أن التجربة علمتنا عندما تطلب أسئلة مكتوبة في حديث صحفي ، ألا نضع الأسئلة الحرجة والدقيقة على الورق . بل نضع الاسئلة المقبولة فقط . حتى لا يصدم المصدر او يستفز من البداية . . وخلال المناقشة تلقى الأسئلة غير المدونة ، واحداً تلو الاخر . يضاف إلى ذلك ان الذي يحدث عملياً هو أن الرؤساء عادة لا يملكون الوقت الذي يمكنهم من كتابة رد على اسئلة صحفي ايا كانت قيمته . فيحيلون الأمر الى مديري المكاتب

انفتح الباب واستقبلنا الرئيس نور تراقي ، بشعره الأشيب الذي ينم عن عمر تجاوز الستين ، وتجاعيد وجهه التي حفر معظمها في المعتقلات وأوكار العمل السري ، وبصوت هادىء وكلمات مختارة ، قال الرجل بعد مقدمة الترحيب والاطمئنان على راحتنا : لقد تلقيت أسئلتك وكتبت ردا عليها . ها هو الرد . شكرا لك .

صدمت . وقلت وأنا اقاوم شبح اليأس وقناعتي تزداد بأن « النحس » لا يزال يطاردنا ، وان الاحباط قد صار شعارا لهذه الرحلة : أرجو ان تأذن لي بقراءة الرد . وأن اناقشك فيما يحتاج الى ايضاح فيه ، حتى لا اسيء فهم ما قلت ، وهو ما لا أظنكم ترضون عنه .

يبدو أنه تصور أن لقاءنا سيكون مقصورا على تسليم الرد المكتوب ، والتقاط بعض الصور . لكنني قررت أن أقاتل ، وأن أفرض نفسي قدر الامكان ، حتى أحصل على اجابة واضحة للاسئلة التي طرحتها . فضلا عن أن التجربة علمتنا عندما نطلب أسئلة مكتوبة في حديث صحفي ، ألا نضع الأسئلة الحرجة والدقيقة على الورق . بل نضع الاسئلة المقبولة فقط . حتى لا يصدم المصدر او يستفز من البداية . . وخلال المناقشة تلقى الأسئلة غير المدونة ، واحداً تلو الاخر . يضاف إلى ذلك ان الذي يحدث عملياً هو أن الرؤساء عادة لا يملكون الوقت الذي يمكنهم من كتابة رد على اسئلة صحفي ايا كانت قيمته . فيحيلون الأمر الى مديري المكاتب

والمستشارين ، بينما الرئيس يكتفي بالمراجعة والتوقيع ، وأحيانا التوقيع فقط ! ويكون الحديث قد جرى في الحقيقة بين الصحفي ومدير مكتب الرئيس او مستشاره !

تشبثت بالفرصة ، وأخرجت القلم والاوراق . معطيا الانطباع بانني متأهب لاجراء حديث طويل ، وغير معترف ضمنا بالرد المكتوب ، رغم أنني القيت نظرة سريعة عليه ، من باب اللياقة والذوق .

شجعني على ذلك أن الرجل بدا مجاملا ، ومستعدا للحديث . الأمر الذي أثار لدي شكا في أن « السيناريو » الذي كان معدا للقاء من قبل هو من إعداد وإخراج رجال المراسم ، الذين يريدون اثبات كفاءاتهم وخبراتهم مع هذه الكوادر الحزبية القادمة من تحت الارض ، ولا تعرف شيئا عن « أصول » الدبلوماسية وتقاليدها ، ودروبها .

قلت للرئيس تراقي : هويتكم ما زالت غامضة لدى العالم العربي ، ولونكم العقائدي والسياسي محل تساؤل كبير . .

قال : أعرف ذلك ، وسمعت بردود الافعال المختلفة التي حدثت في العالم العربي . وقد لعبت الصحافة الغربية دورا

والمستشارين ، بينما الرئيس يكتفي بالمراجعة والتوقيع ، وأحيانا التوقيع فقط ! ويكون الحديث قد جرى في الحقيقة بين الصحفي ومدير مكتب الرئيس او مستشاره !

تشبثت بالفرصة ، وأخرجت القلم والاوراق . معطيا الانطباع بانني متأهب لاجراء حديث طويل ، وغير معترف ضمنا بالرد المكتوب ، رغم أنني القيت نظرة سريعة عليه ، من باب اللياقة والذوق .

شجعني على ذلك أن الرجل بدا مجاملا ، ومستعدا للحديث . الأمر الذي أثار لدي شكا في أن « السيناريو » الذي كان معدا للقاء من قبل هو من إعداد وإخراج رجال المراسم ، الذين يريدون اثبات كفاءاتهم وخبراتهم مع هذه الكوادر الحزبية القادمة من تحت الارض ، ولا تعرف شيئا عن « أصول » الدبلوماسية وتقاليدها ، ودروبها .

قلت للرئيس تراقي : هويتكم ما زالت غامضة لدى العالم العربي ، ولونكم العقائدي والسياسي محل تساؤل كبير . .

قال : أعرف ذلك ، وسمعت بردود الافعال المختلفة التي حدثت في العالم العربي . وقد لعبت الصحافة الغربية دورا

« قذرا » في تشويه سمعة الثورة ، أرادوا أن يستعدوا علينا الجميع ، ولم يتركوا فرصة دون أن يدسوا لنا بالكلمة الكاذبة . ولن نسلم من محاولات التجريح والتشويه ، ما لم نركع للغرب ونسبح بحمده . وهذا ما نرفضه تماما . فنحن نرفض أن ندور في فلك أية قوة غربية أو شرقية ، ولن نكون ظلا لأحد يوما ما .

ثم اضاف : نحن مسلمون موحدون بالله . وليس لاحد أن يطالبنا بأن نثبت ذلك ، ونسوق له الادلة والبراهين ، فتلك مسألة بين العبد وربه ، فضلا عن أننا نرفض التدخل في معتقدات الناس .

نحن ديمقراطيون ، مع الفقراء والطبقات الكادحة ، من العمال والفلاحين ، وضد كل صور الاستغلال التي يتعرض لها الانسان .

فكرنا مؤسس على مبدأ الصراع الطبقي ، لكننا لسنا شيوعيين ، ولم تذكر كلمة الشيوعية في سجلنا السياسي كما لم يكن في افغانستان حزب شيوعي يوما ما . ولكن البعض في العالم الخارجي يحلو لهم أن يصنفونا ضمن الشيوعيين . ومعروف طبعا تلك الجهات التي تحرص على توجيه مثل هذا الاتهام الى كل حركة تدعو الى الحرية والعدل والمساواة . . إنهم دعاة الامبريالية وأنصارها في كل مكان .

قلت : هل تأثر فكركم بالماركسية ؟

قال : لقد سئلت هذا السؤال من قبل . ان تعاليم الماركسية اللينينية لا وجود لها في فكرنا . وبرنامج حزبنا مبني على الافكار التقدمية التي تنصف الفقراء والطبقات الكادحة في بلادنا من العمال والفلاحين . ثم أضاف قائلا : لقد تأثرت فقط بالادب السوفيتي ، خصوصا قصص وروايات تولستوى وجوركي .

قلت : هل أنتم اشتراكيون ؟

قال : نحن ديمقراطيون فقط ، وحزبنا يحمل منذ إنشائه إسم حزب الشعب الديمقراطي . ولم نقل أننا اشتراكيون ، ولا نريد أن نصنف في مربعات فكرية معينة ، لأن إهتمامنا الأكبر منصب على الأخذ بيد جماهيرنا الكادحة ، من خلال برنامج تقدمي ، وضعنا أسسه في الاعلان الذي اصدره حزبنا منذ اعلان تأسيسه في عام ١٩٦٥ . إن لنا تجربتنا الخاصة ، وظروفنا الخاصة ، ولا نريد ان نوضع في قوالب صبها الاخرون ، ولا أن نقف تحت لافتات رفعها الاخرون ! ثم ضحك وقال : إن قيامنا بالثورة في وضح النهار ، على غير ما هو متعارف عليه في سجل الثورات ، يؤكد ان لنا تجربتنا الخاصة !

قلت : في العالم العربي قلق على الاسلام في أفغانستان ؟

قال : لا اظن أن هذا صحيح الان . فقد اعترفت بثورتنا كل الدول العربية والاسلامية . فضلا عن أنني تلقيت رسائل ودية من بعض الزعماء العرب .

قلت : من المعني بهذه الاشارة ؟

قال : لقد بعث الي الملك خالد ملك السعودية برسالة خطية سلمها إلي السفير السعودي في كابول ، ورددت عليه برسالة مماثلة . كما أن العقيد معمر القذافي أرسل مبعوثا خاصا هو وزير خارجية ليبيا ، الذي استقبلناه بكل ترحيب في بلادنا .

(ملحوظة : قال المطلعون من الدبلوماسيين العرب في كابول أن رسالة الملك خالد كانت ترحب باعلان الثورة التزامها بتعاليم الاسلام في بيانها الاول . ولكنهم لاحظوا أن صحف الثورة لم تشر الى ذلك في الخبر الذي نشر عن استقبال الرئيس تراقي للسفير السعودي ، وانما اكتفت بقولها ان السفير سلم رئيس مجلس الثورة رسالة ودية تعبر عن اطيب المشاعر) .

قلت : إن الاعتراف فيه من الالتزام بالقواعد والاعراف الدولية ، باكثر مما فيه من القناعة والرضا ، رغم أن ما جرى هو من شأن ومسئولية شعب أفغانستان وحكومته . . أقصد ان الاعتراف لا يعني ان القلق الذي أشرت اليه ليس قائماً . .

قال : إنني اقول ابتداء أنه من الافضل للذين يستجيبون لحملات التشهير بثورتنا ، أن يلتفتوا الى واقعهم ، ويشغلوا انفسهم

بقضايا العدل والحرية والتقدم للجماهير المسحوقة في بلادهم ، بدلا من دس أنوفهم في شئون دولة اخرى لها استقلالها مثل أفغانستان . إن جماهيرنا ليسوا بحاجة إلى وصاية احد ، وهم الحماة والحراس الحقيقيون على تعاليم الاسلام ومبادئه . حتى الغرب ، أصبح الان قلقا على الاسلام في افغانستان . اليس في هذا مدعاة للعجب والسخرية ؟ لقد أدهشني احد الصحفيين الانجليز في أول مؤتمر صحفي عقدته بكثرة اسئلته والحاحه على موضوع الاسلام . حتى بدا الرجل كما لو كان يرتدي ثياب « المحتسب » (قالها بالعربية) الذي كان منوطا به رعاية شئون الاسلام والمسلمين في التاريخ العربي .

قلت : كيف تفهمون الاسلام اذن ؟

قال : اننا نحترم الاسلام باعتباره دينا يقف الى جانب الفقراء ، ولا نرى فيه أي تعارض مع برنامج ثورتنا . ونتمنى أن نقيم في هذا البلد اسلاما خاليا من الخرافات والشعوذة وكل الشوائب التي أساءت اليه . إسلام لصالح الجماهير العريضة ، وليس مسخرا لخدمة الرجعيين والاقطاعيين والطغاة .

قلت : البعض يتحدث عن امكانية الجمع بين الاسلام والماركسية ، فما رأيكم في ذلك ؟

قال : هذه القضية ليست واردة في فكر حزب الشعب

الديمقراطي ، فضلا عن أنها مسألة دقيقة ، تحتاج الى بحث طويل .

قلت : نقلت وكالات الانباء في بداية الثورة أن أحد رجال الدين في افغانستان « ملا » قد أعدمته سلطات الثورة . . . هل هذا صحيح ؟

قال : فيما أعلم ؛ فانه لم يمس أحد « الملا » في افغانستان . بل إن العكس هو الصحيح ، فنحن نتجه الى المزيد من الرعاية والاهتمام بهم . وقد قررت الثورة أن تخصص لهم معاشات شهرية باعتبارهم « عمالا دينيين » . لكنني في الوقت ذاته أنبه الى أن الثورة ستضرب بيد من حديد كل شخص أو جهة تحاول أن تعترض مسيرتها ، بغير استثناء ولا تمييز .

قلت : لقد تم الافراج عن أعضاء الحزب الذين كانوا معتقلين قبل الثورة ، لكن رجال الدين المعتقلين لم يفرج عنهم ، وهذا وضعٌ ملفت للنظر ، إذ العادة أن تفرج أي ثورة عن المعتقلين السياسيين الذين احتجزهم النظام الذي ثاروا عليه .

قال : هؤلاء الملا سندرس حالاتهم ، وأنا لا أعرف عددهم بالضبط ، الذين ينسب اليهم شيء سيحاسبون عليه أمام القضاء والباقون سيفرج عنهم . (كانت حكومة الرئيس داود قد اتهمت بعض العناصر التي تنتمي الى الجماعة الاسلامية التي يطلق عليها « الاخوان المسلمون » بأنها قتلت وزير التخطيط عام ٧٧ ، وقامت

بحملة اعتقالات واسعة بين افراد هذه الجماعة)

قلت : هل ترغبون في اقامة علاقات خاصة مع العالم العربي والاسلامي ؟

قال : ان ايدينا ممدودة للجميع . وقد قلنا ونكرر القول أن علاقاتنا بالآخرين سيحددها حجم تعاونهم ومساعدتهم لنا . وفيما يتعلق بالعالم العربي فإننا نترقب منه الدعم والمساعدة، وهي الصيغة العملية للتعبير عن التضامن والاخاء في الاسلام . وليتنا نعطي الجوانب المادية في حياة المسلم ، نفس الاهتمام الذي نوليه للجوانب الروحية . إن قلوب الناس في بلادنا عامرة بالايمان ، لكنهم بحاجة الى الغذاء والكساء والمأوى . باختصار نحن لا نريد « ملا » من العالم العربي والاسلامي ، فلدينا اكتفاء ذاتي في رجال الدين ، ولكننا نريد مساعدات مالية تمول مشروعات تنقذ بلادنا وشعبنا من هوة التخلف .

قلت : ثمة شواهد متعددة تشير الى أنكم منحازون الى الخط السوفيتي ، وأن علاقة غير عادية تربطكم بموسكو ، وأظهر هذه الشواهد أن أول وفود للثورة اتجهت الى موسكو ، ثم ان كل جسور نشاطاتكم الاقتصادية بعد الثورة امتدت نحو الاتحاد السوفيتي ودول المجموعة الاشتراكية .

قال : من قبيل التكرار أن أعود فأوكد اننا دولة غير منحازة .

واذا كان لنا أن ننحاز ، فان انحيازنا هذا هو فقط للطبقات المسحوقة في أفغانستان . أما فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي ، فقد كان منذ ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، وسيظل ، صديقا مخلصا للشعب الافغاني . لقد كان الاتحاد السوفيتي هو أول الدول التي اعترفت باستقلال بلادنا ، وأول الدول التي مدت لنا يد المساعدة غير المشروطة . بل كان الدولة الأولى التي اعترفت بالجمهورية الافغانية عام ٧٣ (ثورة ٢٦ سرطان) ، وهو أيضا أول من اعترف بثورة « ٧ ثور » التي قام بها حزب الشعب الديمقراطي . أما الوفود التي سافرت الى موسكو ، فهي مسألة حكمتها « الصدفة » ، وليست لها الدلالة التي تشير اليها . وفيما يتعلق بالنشاطات الاقتصادية التي تتحدث عنها فان الاتحاد السوفيتي كان موجودا قبل الثورة ، وكان ينفذ ١٢٠ مشروعا في انحاء افغانستان هو وبقية الدول الاشتراكية . واذا كنا قد وقعنا اتفاقيات اقتصادية مع موسكو وغيرها ، فهذا موقف يتفق مع خطنا الذي أعلناه اكثر من مرة : ان علاقاتنا بالدول تتدعم او تتقلص تبعا لحجم مساعدتها لنا ، وأيدينا ترحب بالذين يمدون أيديهم لنا . وهذا ينطبق على الاتحاد السوفيتي وغيره من الدول . وليس من المنطق او العقل ان نتمنع بينما نحن بحاجة الى مساعدات الاخرين ، طالما كانت تخدم طموحات شعبنا ، وليست مقترنة باية شروط .

قلت : في أول مؤتمر صحفي ، قلت أن حزب « الخلق » لم يكن راغبا في التصادم مع نظام الرئيس داود ، وان مطلبكم في ذلك

الوقت هو أن تشكل جبهة قومية لتحمل المسئولية في البلاد ، هل فكرة الجبهة لا زالت واردة . . أعني هل ستفتحون الباب للاخرين للاشتراك معكم في الحكم ، خصوصا ممثل الجماعة الاسلامية ، وحزب «شولي جاويد» ؟

قال : إن جميع المؤيدين لخط ثورتنا ستتعاون معهم بغير تمييز والى غير حدود . أما الذين نتحدث عنهم فهم من المتطرفين الذين لا يشتركون معنا في أرضية واحدة . ولن يسمح للمتطرفين سواء من اليمين او اليسار بالعمل لتخريب مسيرة الثورة . لقد كان الملك أمان الله خان رجلا تقدميا اذا قورن بغيره ، ولكن المتطرفين اتهموه بالكفر بتحريض من الانجليز . الامر الذي أدى الى فوضى في البلاد ، بعد تنازله عن العرش ونحن لن نسمح بحدوث هذه الفوضى بأي حال .

قلت : الواضح الان أن حزب الشعب وحده هو الذي يتولى الحكم وأن كوادره تنتشر الآن تدريجيا في كافة مواقع المسئولية .

قال : ان الحزب هو الذي قام بالثورة . وهو ملتزم ببرنامج عمل أمام الجماهير ، أي أنه المسئول عن إحداث التغيير الذي ننشده والذي قامت الثورة من أجله . ومن الطبيعي أن تباشر كوادره مسئولية التنفيذ والتوجيه .

قلت : والجيش ؟

قال : هذه ثورة حزب الشعب الديمقراطي ، والحزب هو الذي

خطط لها وأصدر تعليمات تنفيذها ، وحدد ساعة الصفر . والجيش كان منفذا . جناح الحزب العسكري هو الذي تولى عملية التنفيذ . وضباط الجيش الذين تلقوا تعليماتنا ونفذوها بدقة وجسارة ، هم أعضاء في مجلس الثورة .

قلت : من هي الجهة صاحبة السلطة العليا في الدولة الآن ، مجلس الثورة ام اللجنة المركزية ؟

قال : اللجنة المركزية هي السلطة السياسية العليا . ومجلس الثورة هو السلطة التنفيذية العليا ، هو الذي يختار الوزارة ، والوزارة مسئولة امامه .

قلت : كم يبلغ عدد كوادر الحزب ؟

قال : أعضاء الحزب والذين تحت الاختبار يصل مجموعهم الى ٥٠ الف شخص . والعضو يمر بفترة اختبار وتدريب مدتها ستة اشهر ، بعدها يصبح عضوا عاملا . أي أن لدينا الكوادر الكافية التي تستطيع ان تتحمل مسئولية تنفيذ البرامج التي التزمنا بها .

قلت : هل هذه أوضاع مؤقته أم دائمة . أعني هل لديكم مخططات عن تغييرات في البناء السياسي للدولة . . الدستور والبرلمان والأحزاب والحريات الصحفية ، على سبيل المثال ؟

قال : سنشكل لجنة لتغيير الدستور ، ونحن ندرس كافة النقاط

التي اشرت اليها ، لاختيار أفضل الصيغ واكثرها ملاءمة لظروف شعبنا ، والتوقيت المناسب لاتمام كل خطوة . وبصفة مبدئية فان حرية التعبير والعمل السياسي ستكون مكفولة لكل ذوي الافكار غير المعادية للطبقة العاملة والفقيرة في بلادنا .

قلت : ما هي الخطوط الاساسية لبرنامج الاصلاح الداخلي ؟

قال : البرنامج أذيع ، وهو في ٣٠ نقطة ، تنطلق من بيان حزب الشعب الديمقراطي الذي صدر في عام ٦٥ ، وتفصيلاته كثيرة ، لكنه يستهدف في النهاية توجيه اكبر قدر من الرعاية للطبقات العاملة والمسحوقة في افغانستان . الفقراء الذين عانوا سنوات طويلة من التخلف والظلم الاجتماعي ، هؤلاء هم شاغلنا الاول . سنؤمن لهم العمل قدر الامكان . سنوفر لكل منهم معاشا يبدد قلقه على المستقبل . سنطبق الاصلاح الزراعي ، وسنقيم مزارع جماعية تتيح لهم قوة انتاجية اكبر ، وروحا تعاونية لا بد أن تسود ابناء البلد الواحد . لقد بدأنا بخطوات بسيطة ، ولكنها تعكس رؤيتنا للاشياء . لقد غيرنا نظام بطاقات التموين مثلا . اذ كان السائد عندنا نظاماً يعكس تفرقة غير إنسانية بين البشر . موظف الحكومة يحصل على ٦٥ كيلوجراما من المواد التموينية التي توفرها الحكومة للناس باسعار معقولة ، بينما العامل يحصل على ٣٥ كيلوجراما فقط . الآن تساوى الجميع ، وأصبح العامل يحصل كالموظف تماما على ٦٥

كيلوجراما من هذه المواد . نفس الشيء حدث في الجيش ، فلا فرق بين الجنرال واصغر جندي « الاثنان بشر ، والجند الصغير احوج الى الرعاية » .

قلت : كثرت الاشارات الى موضوع قبائل البلوش والباشتون على الحدود الباكستانية الأفغانية ، وهو موضوع كان يثار في الماضي بين الحين والاخر . هل ستتبنون دعوتهم الى تقرير المصير ، وكيف تتصورون حل المشكلة مع باكستان ؟

قال : نحن حريصون على حل المشكلة بكل تأكيد ، وسنواصل الاتصال مع باكستان لتحقيق هذا الحل بالاساليب السلمية . لكننا مختلفون في وجهات النظر . هم يتحدثون عن الأمر الواقع ، ونحن نتحدث عن الحقوق التاريخية التي لا يمكن اسقاطها . واذا لم يحقق التفاهم المباشر نتيجة فقد نلجأ الى جهة دولية محايدة ، محكمة العدل الدولية مثلا .

قلت : في أول مؤتمر صحفي ابديت استغرابا لأن باكستان وإيران تأخرتا في الاعتراف بالثورة . . كيف تفسر هذا التأخير ؟

قال : الواقع أن ما قلته في المؤتمر الصحفي كان مجرد « نكته » !

قلت : هل تعتقد أن وقوع الثورة في افغانستان سوف يؤثر على خريطة المنطقة المحيطة بكم ؟

قال : إن تجربتنا للجميع ، والافكار لا تعرف الحدود السياسية والجغرافية ، ولا تحمل بطاقات جنسية وجوازات سفر . وليس هناك ما يمنع من ان يأخذ الاخرون من افكارنا .

قلت : ما دمنا نتحدث عن السياسة الخارجية ، ما هو موقفكم من قضية فلسطين ؟

قال : نحن مع الفلسطينيين على طول الخط ، ونتابع نضالهم من أجل العودة الى وطنهم المغتصب بكل مشاعر الاعجاب والتقدير ، فكما أننا ضد الظلم الاجتماعي ، فنحن ضد الظلم السياسي بنفس القدر . نحن نعتبر الفلسطينيين حركة تحرير وطنية ، ينبغي أن تلقى كل العون والتأييد من كل الشرفاء والوطنيين في العالم كله .

قلت : اخيرا ، هل تريد أن تقول شيئا للعالم العربي ؟

قال : ضاحكا ، لا تنسَ أن تبلغ رسالتي الى وزراء مالية بلادكم !

الـــزلـــزال

بعض ما قاله الرئيس نور محمد تراقي يحتاج الى مناقشة وتقييم ، كما أن كل ما جرى يحتاج الى قراءة متأنية .

ذلك أن الذي حدث في افغانستان هو زلزال كبير ، بكل ما ترمز اليه الكلمة وتعنيه . . زلزال اهتزت له مشاعر المسلمين في أنحاء الارض ، وانهارت في أعقابه توازنات محسوبة بين الشرق والغرب ، وحدثت بسببه شقوق عميقة ـ لا يزال اكثرها دفينا ـ في الخريطة السياسية لمنطقة وسط آسيا ، قد تمتد آثارها الى مخارج البترول العربي .

وهذا الزلزال ـ اذا استمر ـ يعد نقلة بالغة الاهمية في تاريخ افغانستان ، ونقطة تحول في منطقة وسط آسيا ، وبداية صفحة

جديدة في قصة صراعات القوتين الأعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وهو يعنينا بكل المقاييس ، ليس فقط لأن آثاره قد تمتد الى مخارج البترول العربي - على خطورة هذه النقطة - ولكن أيضا لان مسرح الحدث هو إحدى قلاع الاسلام العريقة والمنسية في آسيا . ولان « حالة » أفغانستان بوجه خاص تعكس واقع دول عديدة في عالمنا العربي والاسلامي ، والخيارات الصعبة المطروحة أمام شعوب هذه الدول لشق الطريق الى المستقبل . . وهو يعنينا - أخيرا - باعتبارنا جزءا من هذا العالم المضطرب ، الذي سلبت فيه ارادة الصغار طوعا وكرها ، وبقي الكبار وحدهم في الساحة ، يتلاعبون بمصائره وأقداره وفقا لمصالحهم .

لهذا كله ينبغي أن نفهم بالضبط ما حدث ونستوعبه ، ونحفظ دروسه جيدا . وهو أمر لن يتحقق ما لم نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب ، والنواح والحسرة على الذي ضاع والذي سيضيع ، كما فعل البعض في العالم العربي . ذلك أننا في مواجهة موقف يحتاج الى عقل واع ، ونظر بعيد ، وارادة عمل شجاعة . . نحن في مواجهة زلزال .

فثمة شواهد تناقض ما قاله الرئيس تراقي متعلقا « بلون » حزب

الخلق ومنطلقاته الفكرية . وقبل أن نستعرض هذه الشواهد لا بد أن ننتبه الى مدى عمق الشعور الديني في افغانستان .

فعامة الناس هناك ، أمام قضية الدين ، ينسون كل شيء ، الفقر والتخلف والظلم الذي عانوا منها كثيرا ، ولا يرددون الا عبارة واحدة ، سمعتها تتكرر على كل لسان هي أنه « ما دام الاسلام آمنا فنحن بخير » .

وقد كان هذا الشعور الديني العميق هو الذي دفع الجماهير الى الثورة والاطاحة بالملك امان الله خان في عام ١٩٢٩ بعد أن ظهرت زوجته سافرة الوجه في صورة نشرت لها باحدى الصحف الاوروبية اثناء زيارة قامت بها الاسرة لاوروبا . (لاحظ في المناقشة أن الرئيس تراقي يذكر القصة جيدا ويتعاطف مع الملك امان الله خان)

واذا كانت صورة وجه سافر لزوجة الملك نشرت في أوروبا اضطرته للتنازل عن العرش ، فما بالكم اذا ذكرت كلمة « الماركسية » في افغانستان ؟؟

واذا كان الفزع ينتاب الكثيرين من المتعلمين والدارسين في العالم العربي عندما تذكر « الماركسية » أمامهم ، فكيف نتصور صدى ذلك في مجتمع هذه عاطفته الدينية ، ونسبة الامية فيه تصل الى ٩٠٪ ؟

من أجل ذلك اختفت كلمة « الماركسية » تماما من قاموس الحياة السياسية في افغانستان ، ولم يجرؤ أحد من المنتمين الى فرق اليسار أن يأتي على ذكر الكلمة علنا ، بالتلميح أو التصريح ، بل إنهم ينفون بصورة قاطعة أية علاقة لهذه الحركات بالماركسية ، ويعتبرون تصنيفهم في هذا الاطار تخريبا معاديا وامبرياليا ، كما قال الرئيس تراقي .

ومع ذلك فثمة إجماع على أن الخريطة السياسية لأفغانستان عرفت خلال الخمسة عشر عاما الاخيرة ثلاث فرق لليسار : أولها وأقدمها حزب « شولي جاويد » أو الشعلة الابدية ، الذي تؤ يده الصين ، وقد وصفه الرئيس تراقي بانه يساري متطرف ، والثاني حزب « الخلق » او الشعب الديمقراطي « بعد الترجمة » الذي أنشأه الرئيس نور محمد تراقي ، والثالث حزب « بارتشام » أو العلم ، الذي يرأسه برباك كارمل نائب رئيس مجلس الثورة الحالي ، ويدعم السوفيت هذين الحزبين اللذين اختلفت مواقفهما من الرئيس داود .

فبينما كان بارتشام يؤ يد التعاون معه ، فان حزب الخلق كان أميل الى مقاطعته . وبعد اتجاه الرئيس داود الى ضرب اليسار ، اندمج الحزبان في « الخلق » منذ عام تقريبا ، واختفت كلمة « بارتشام » ، مؤ قتا (ظهرت الخلافات بين زعيمي الحزبين حول توزيع المناصب بعد الثورة ، وان كانت الوزارة قسمت بينهما مناصفة)

الا أن الذي يعنينا في هذه الصفحة من تاريخ اليسار هو الاتجاه القوي بين المراقبين والعارفين بالخريطة السياسية لافغانستان ، الذي يعتبر هذه الفرق ذات انتماء ماركسي بدرجات متفاوتة . حتى أن الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي انعكس على علاقاتهما ، فالصحيفة السرية للحزب المؤيد من الصين « شولي جاويد » ، كانت تهاجم الحزبين الاخرين معتبرة حزب الخلق الاكثر اعتدالا بأنه « رجعي » ، وحزب بارتشام بأنه « تحريفي » !

أيضا يدللون على تأييد السوفيت لهذين الحزبين بواقعة حدثت عندما جرى صدام بين ممثلي اليمين واليسار امام البرلمان الافغاني عام ٦٥ ، وشجت رأس نورمحمد وزير الداخلية الحالي، وكان عضواً بارزاً في «الخلق»؛ فان السفير السوفيتي في كابول تدخل وقتئذ وقال للسلطات الافغانية أن حالته الخطرة تحتاج الى علاج خاص . ثم جاءت طائرة خاصة نقلته حيث عولج هناك في موسكو . وبعد أن عاد بتعصب زائد للسوفيت أشاع أعضاء حزب « شولي جاويد » أنهم في موسكو قبل ان يخيطوا له رأسه ، غيروا مخه واستبدلوه بمخ رجل سوفيتي !

ثم إنه ليس مفهوما في حديث الرئيس تراقي قوله أن فكر حزب « الخلق » يقوم على اساس الصراع الطبقي ، ثم نفيه حتى أن برنامج الحزب ماركسي . يتصل بذلك أن الرئيس تراقي ذاته له كتابات في

الماركسية اللينينية صدرت في الهند بلغة الباشتو (مؤلفاته ما بين ١٠ ، ١٢ كتابا في الادب والسياسة) ، وكانت محظورة في أفغانستان قبل الثورة لكنها لم تنزل الى الاسواق بعد الثورة ، لمزيد من الاحتياط والحذر .

وعندما وقع الانقلاب ، وعرفت أسماء قادته ، كان « مانشيت » مجلة « كارانت » التي تميل الى اليسار وتصدر في بومباي ، والتي يرتبط رئيس تحريرها مع هؤلاء القادة بعلاقات وثيقة ويعرفهم جيدا منذ الستينات ، كان المانشيت يقول : النجمة الحمراء ترتفع فوق أفغانستان !

وبالاضافة الى هذا كله ، فان البعض يقول أن محاولة داود تصفية اليسار ليست هي السبب الرئيسي الذي أشعل الثورة ، ولكنها الذريعة والحجة الظاهرة فقط ، وأن السبب الحقيقي هو في سياسة الرئيس داود خلال السنتين الاخيرتين التي اتجهت الى الانحياز لامريكا ومد الجسور مع ايران وباكستان ، بصورة لم ترض عنها موسكو .

وحتى اذا أغمضنا أعيننا عن كل هذه الشواهد ، فانه من الطبيعي ان يسعى الاتحاد السوفيتي الى دعم قوى معارضة لنظام ارستقراطي كالذي كان قائما في افغانستان . كما أنه من المفهوم أيضا أن تسعى هذه القوى لضمان تأييد الاتحاد السوفيتي ، وهو دولة كبرى ولها

حدود مشتركة مع بلادهم بطول ١٢٨٠ كيلومترا . أقول أنهم اذا لم يكونوا ماركسيين مائة بالمائة ، فمن المؤكد أنهم يتجهون الى موسكو ، وأن النظام السوفيتي يلقي بثقله السياسي والاقتصادي وحتى العسكري ، الى جانبهم . .

وقد كان هذا التوجه الى موسكو هو احد الخيارات المطروحة أمام أفغانستان. ويبقى بعد ذلك خياران آخران هما : بقاء الوضع كما كان عليه في ظل حكم أسرة الدوراني ، التي ينتمي اليها الرئيس السابق محمد داود وابن عمه الذي اطاح به عام ٧٤ والمقيم الآن في ايطاليا ، الملك محمد ظاهر شاه . او التوجه المنسوب الى الاسلام يتمثل في المولويين والملا (رجال الدين والأول أعلى درجة) ، ثم الجماعة التي تحمل اسم « الاخوان المسلمون » .

ولنحاول أن نستعرض هذين الخيارين . .

ذلك أن نظام حكم الرئيس داود ارتبط فعلا بارستقراطية عانت منها أفغانستان الكثير . أسرة واحدة تحكم ، مع خمس أسر بالتحديد ، لها علاقات وثيقة بها ، سواء بالقرابة أو الانتماءالطبقي. هذه الأسر الست كانت تحتكر ثروة افغانستان ، وكل المناصب والوظائف العليا بها . . (وهو خطأ تكاد تقع فيه الثورة الآن باتجاهها الى قصر المناصب الرئيسية على كوادر الحزب فقط) . حتى أنه لم يكن

مسموحا لواحد من خارج هذه الأسر أن يتجاوز درجة معينة في السلك الوظيفي . بل إن السلك الدبلوماسي الافغاني كانت وظائفه مقصورة على اثنتين فقط من هذه العائلات .

وقد قال لي أحد السفراء العرب وهو يعلق على هذه الظاهرة : لم نكن نرى الا وجوه ابناء هذه العائلات في الوزارات والحفلات والنوادي ، حتى خيل إلينا أنه ليس في افغانستان غيرهم . وقد أبدى احدهم استياءه ودهشته عندما دعي الى حفل والتقى هناك بواحد من الافغانيين ، من خارج تلك العائلات .

وقد كان هذا الاحتكار الطبقي للوظائف احد الأسباب الاساسية وراء هجرة المثقفين الأفغانيين الى الخارج ، وهي من أعلى نسب الهجرات . ذلك ان ٧٠٪ تقريبا من الافغانيين الذين أوفدوا للدراسة بالخارج لم يعودوا الى وطنهم ، لأن الابواب مغلقة امامهم .

وربما كان هذا الاحتكار ايضا أحد العوامل التي أدت الى انتشار صور عديدة من الفساد الاداري والمالي الذي عرفت به أفغانستان ، وقد كانت الرشوة في مقدمة مظاهر هذا الفساد المستشري ، فاذا كان التقدم بالاساليب المشروعة ممنوعا على صغار الموظفين ، فإن الابواب غير المشروعة بغير حصر ولا عد !

ومن الطبيعي في ظل أوضاع كهذه أن يستشري الاقطاع ، وان يفرز

حكم الطبقة طغيان حكم الفرد . وهو الذي بلغ ذروته في عهد الرئيس السابق داود . اذ الغى البرلمان وملأ السجون برجال الدين وضيق عليهم ، لكن احدا لم يتحرك . وعندما استدار ليضرب اليسار ، قامت الثورة .

أما التوجه المنسوب الى الاسلام ، فقد كان يسيء الى جوهر الدين ، لتخلفه الفكري الشديد . . .

ورغم أن التربة خصبة للغاية ، ومهيأة تماما لاستقبال هذا التوجه والانطلاق به الى الأمام ، الا أن الفكر الديني في أفغانستان ينتمي في الواقع الى عصور المماليك والأتراك . والعاملون في هذا الحقل معروفون بانهم من حفظة « المتون (النصوص) القديمة » ، وهو موقف أظهرهم في صورة شديدة الجمود والتخلف . وكما أصدر مفتي استنبول فتواه الشهيرة في عهد السلطان محمود ، التي كفر فيها كل محاولة لتحديث الجيش التركي لان استخدام اسلحة « الكفار » حرام او التشبه بزيهم حرام ! فان المولويين والملا لا يزالون عند هذا الموقف . هم ضد الحياة الحديثة بكل صورها . الراديو والتلفزيون والسينما حرام عندهم . والاصلاح الزراعي ضد الدين ، وحلق اللحية كفر ، لأنها وإن كانت من الصغائر « الا أن الاصرار على الصغيرة يعد من الكبائر التي يكفر مرتكبها » !

وعندما أنشئت كلية الطب في كابول خلال الخمسينات ، احتجوا

وقامـوا بحصـار الـكلية بدعـوى أن تشريح جثـث الموتـى حرام . واضطرت الجامعـة ازاء ذلك ان تدرس الطـلاب كافـة العلـوم في كابول ، وتوفدهم الى الهند لدراسة علم التشريح وحده !

وقبل ذلك في بداية القرن الحالي ، عندما أرسلت الحكومة الافغانية بعثة من الفتيات لدراسة التمريض في استنبول ، ثار المولويون واجبروا البعثة على العودة مرة أخرى الى كابول .

هذه ـ إذن ـ الخيارات التي كانت مطروحة امام افغانستـان : إمـا التوجه الى موسكو ، أو البقاء في ظل حكم أسرة نادر شاه ، او تسليم الأمور الى المولويين والملا !

ألم أقل أنها خيارات صعبة !

وللحقيقة ، فانه فيما يتعلق بالاسلام ، فلم يكن له وجود حقيقي ومؤثر ، بل إن رجال الدين تعرضوا لاضطهاد شديد ، في ظل حكم داود ، وحتـى إذا افترضنـا أن هذا الوجـود الهش استمـر في ظل الثورة ، فلن تصبح الاوضاع اكثر سوءا ، وربما حدث العكس اذ انه في الوضع السابق كان متلازما مع طغيان وفساد واقطاع ، واذا صدقت وعود قادة الثورة والتزموا بالبرنامـج الـذي أعلنـوه ، فقـد يتحقق وضع أفضل لصالح الجماهير الفقيرة والغفـيرة التـي كانـت مهملة في الماضي .

أي أنه من وجهة النظر الاسلامية ، فاننا نستطيع أن نصوغ الخيارات التي كانت مطروحة أمام الشعب الافغاني على النحو التالي : اما اسلام مشوه يقوم على فكر متخلف ، او إسلام « معلب » وهش يقترن بظلم بين ، او اسلام معلب ـ ايضا ـ مع عدل موعود !

لم يكن امام الناس ان يختاروا بين وضع أمثل وغيره ، ولكن كان عليهم أن يختاروا الوضع الاقل سوءا !

ولما كانت فرق اليسار هي الاكثر تنظيما ، والانشط في قطاعات الجيش ، خصوصا وأن مائة ضابط افغاني كانوا يوفدون للتدريب في الاتحاد السوفيتي سنويا طوال حكم داود ، فقد كانت هي البديل الوحيد المهيأ لتولي السلطة .

وساعدهم على ذلك انهم اضطروا الى ان يعملوا « تحت الارض » ، وفي الظلام خلال سنوات حكم الرئيس السابق داود ، الذي مارس نوعا من الحكم الفردي المتسلط ، في حين أنهم في ظل حكم الملك ظاهر شاه كانت حرية التعبير متاحة لهم بقدر ، وكان لهم في البرلمان ٩ نواب يتكلمون في النور ، ولم تكن فكرة الثورة واردة .

أي أنه في غيبة وجود وسائل مشروعة للتنفس والتعبير والحركة ، كان اللجوء الى التنظيمات السرية والوسائل غير المشروعة هو المنفذ والحل الوحيد . .

وهذا درس آخر ليتنا نتعلمه ونستوعبه !

أما وقد حدث الزلزال ، وصعد على المسرح فريق اليسار المتجه الى موسكو ، فان احتمالات هذا المستقبل تستحق منا الاهتمام . داخليا ، ثمة موقف لم يحسم بعد مع طبقة المولويين والملا . ورغم أنهم أيدوا موقف النظام الجديد من اعلانه احترام مبادىء الاسلام ، الا ان هذه ليست الكلمة الاخيرة . لان الخلفيات ما زالت تثير مخاوف بعضهم . وقد قيل أن عددا من رجال الدين واسرهم احتفوا ، وتسللوا الى باكستان متأثرين بهذه المخاوف . كما اتيح لي أن أتأكد من أن بعض طلبة الجامعة ـ في السنوات النهائية ـ تركوا دراستهم قبل تخرجهم بشهرين . وفروا مع أسرهم الى باكستان . وقال لي اكثر من واحد التقيت به أنه أصبح يفكر في الهجرة ، هو وأسرته ، لكن قرارهم مرهون بالتطورات المقبلة .

وحساسية هذه النقطة تكمن ليس فقط في الشعور الديني العارم في أفغانستان ، ولكن أيضا في ان المولويين والملا هم سلطة لها وزنها خارج كابول . واذا كانت الدولة تمارس السلطة الادارية ، الا أن السلطة الفعلية ما زالت في يد رجال الدين وشيوخ القبائل .

وقد قال لي أحد الخبراء العارفين بالاوضاع في افغانستان ، أن مستقبل هذه الثورة سيتحدد داخل المساجد !

اما انعكاسات الموقف في أفغانستان على ما حولها ، فلا يمكن التقليل من شأنها . ذلك أن أفغانستان باعتبارها قلعة اسلامية عريقة ،

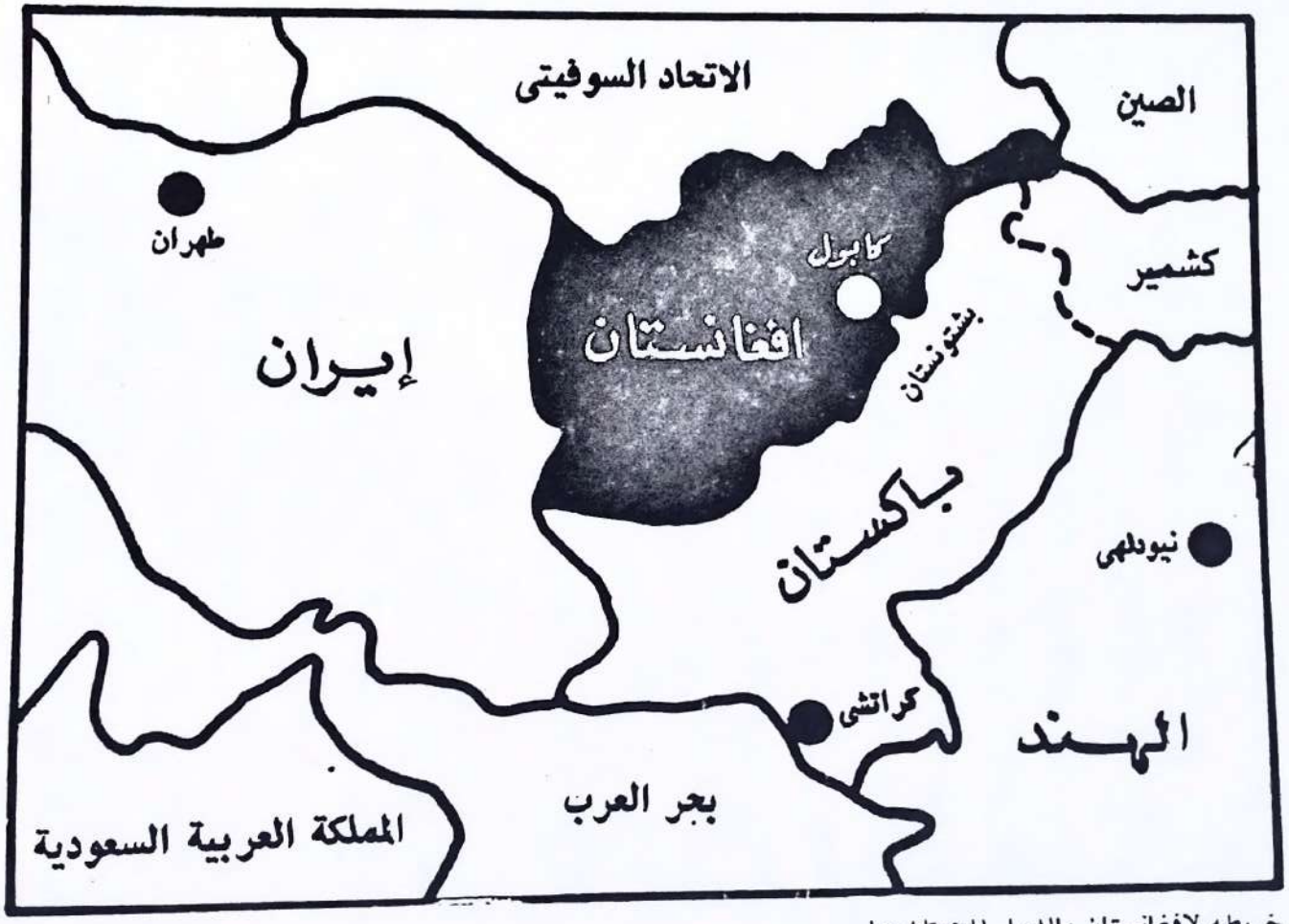

خريطه لافغانستان والدول المحيطه بها

كانت تعتبر من وجهة نظر امريكا والغرب هي الجدار الذي يحول دون وصول الشيوعية ووراءها السوفيت الى المحيط الهندي . وكان هناك حرص من القوتين الأعظم على استمرار التوازن بين مصالحهما في افغانستان ، كما كانت الحكومة الافغانية في الماضي تحرص على اقامة علاقات طيبة مع هاتين القوتين ، حفاظا على دقة الميزان . وقد انتهت حروب الافغان في القرن التاسع عشر ، الى اتفاق ضمني على تحييد افغانستان ، التي شبهها احد حكامها في موقعها الاستراتيجي المسحوق بين قوة البر وقوة البحر « بشاة » بين الدب الروسي والاسد البريطاني . ويسجل التاريخ انه في اوائل القرن العشرين ، عندما وصل التغلغل الروسي في ايران الى احتمال السيطرة عليها كاملة ، وقفت فرنسا اولاً مع ايران ، ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية في المحيط الهندي لتنذر بان اي محاولة روسية لبسط نفوذها في الخليج ستقاوم بالقوة .

وحتى في السنوات الاخيرة الماضية ، فقد كان معروفاً ان هناك جهداً صامتاً لتحقيق هذا التوازن ـ الذي يعبر بقدر عن الحياد ـ بين القوتين الاعظم . وكان الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه ينفذون كل مشروعات الجزء الشمالي من افغانستان : الطرق والجسور ومحطات الكهرباء ومشروعات التعمير بينما كان الامريكيون وأعوانهم ينفذون مشروعات النصف الجنوبي للبلاد . وعندما أقام السوفيت مطار كابول ، سارع الامريكان إلى بناء مطار حديث في قندهار ـ العاصمة

الثانية في منطقة الجنوب . وهناك ، يقولون أنه لمزيد من حفظ التوازن في العاصمة فان السجائر امريكية لكن الكبريت سوفيتي ، وهذه الواقعة صحيحة !

وهم يتندرون بالقصة التي حدثت في الخمسينات عندما زار الرئيس الامريكي ايزنهاور مدينة كابول ، وصدم عندما قيل له أن المطار الذي هبط فيه أقامه السوفيت ، والسيارة التي استقلها من طراز « زيم » السوفيتي ، والطريق الذي مر فوقه الى المدينة شقه السوفيت ، وبيت الضيافة الذي نزل فيه بناه السوفيت !

لكن الواضح ان الميزان انقلب لصالح السوفيت مع قيام الثورة . وقلب معه حسابات كثيرة ، بل نسف لعبة التوازن ذاتها . وعلى حد تعبير احد الدبلوماسيين في كابول فقد « كان للسوفيت قدم واحدة في افغانستان وصارت لهم الآن قدمان » .

ويثير ذلك الف سؤ ال حول رد الفعل الامريكي . . هل ستسمح أمريكا بان تمر العملية بسلام ، وهل سيسلمون ببساطة بانهم خسروا هذه الجولة في قلب آسيا ، بعد أن خسروا جولات أخرى في افريقيا ؟ . . ثم هل تحتمل اللعبة الدولية مثل هذه التجاوزات ؟ . . واذا سمح قانون اللعبة بذلك ، فلأي مدى ، وبأي ثمن ، ومن يدفع هذا الثمن ؟

ذلك أن افغانستان لم تعد هي الجدار العازل الذي يحول دون

وصول السوفيت الى المحيط الهندي بل فتحت ابوابها ـ لأول مرة في تاريخها ـ لتحقيق حلم القياصرة القديم . أن يصبح «لروسيا» منفذ الى « البحار الدافئة » ، بعدما اقتربوا من بحر العرب المؤدي الى المحيط الهندي ، والعالم الواسع الارجاء بعد ذلك .

وليس معنى ذلك أن السوفيت قد وصلوا فعلا الى شاطىء بحر العرب ، ولكن غاية ما يمكن أن يقال أنهم تقدموا خطوة هامة في هذا الاتجاه .

والعارفون بشؤون المنطقة يقولون ان فتح ابواب افغانستان للسوفيت ، يجعل بمقدورهم ان يطرقوا بسهولة ابواب ميناء « بندر عباس » الايراني ، القريب من الحدود الافغانية .

وثمة نتيجة أخرى بالغة الاهمية تترتب على اقتراب السوفيت من بحر العرب ، وهي امكانية التحكم في مداخل الخليج ، والتحكم بالتالي في مخارج البترول العربي والايراني ! ومن الثابت تاريخياً ان السياسة الروسية في الزمن القديم اعتبرت ان المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفي اتجاه الخليج العربي ، هي الاطماع الشرعية لها ، وان ايران هي قناة السويس الروسية ، وانه لا بد من « ممر » الى الخليج .

ولو أن الأمر يتعلق بالعرب والايرانيين وحدهم ، لهان ولما ألقى أحد في العالم بالا لمصدر التهديد أو حجمه ، ولكن الأمر يكتسب اهميته وخطورته من أن هذا البترول يهم المصالح الغربية في اوروبا

وآسيا ، ويهم الشركات الامريكية ، وقد يهم الولايات المتحدة الامريكية ذاتها في المستقبل ، اذا تحققت تقديرات زيادة اعتمادها على البترول العربي في الثمانينات . ومع ذلك فانه على أبعد الفروض ، اذا لم يمس التهديد المصالح الامريكية مباشرة ، فهو يمس بل يطعن « الهيبة » الامريكية بكل تأكيد .

وباب المستقبل لا يزال يتسع لمزيد من الاحتمالات . ذلك أنه بعد نجاح السوفيت في منافسة السيطرة الامريكية على مياه البحر الابيض « الدافئة » منذ الستينات ، فقد تشهد الثمانينات منافسة سوفيتية أخرى للسيطرة الامريكية على مياه المحيط الهندي ، وتهديدا للقلاع الامريكية المسلحة التي نصبتها فوق بعض جزر المحيط .

واذا صح أن للسوفيت قواعد عسكرية قرب مداخل البحر الاحمر (في اثيوبيا) ، فان ذلك يعني أننا مقبلون على عالم جديد ، تتغير فيه خريطة السيطره على المحيطات ، وتتبدل فيه قوانين كثيرة في لعبة القوى الكبرى ، خصوصا اذا وضعنا في الاعتبار تلك التيارات الصاخبة التي تموج بها افريقيا وآسيا الان .

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الاحتمالات وغيرها ، لا تتعارض مع افتراض ان النظام الجديد في افغانستان قد لا يكون ماركسيا ، او « تابعا » للاتحاد السوفيتي . فقد وصل السوفيت الى البحر الابيض عبر علاقات وثيقة مع بعض الدول العربية (مصر في المقدمة) ،

دون أن تصبح مصر ماركسية أو تابعة لموسكو . ذلك أن الأخذ والعطاء من قواعد اللعبة السياسية . ويظل المهم دائما هو كيف يمكن أن تأخذ باكثر مما تعطي وكيف يضبط العطاء بحيث لا يتحول الى تفريط في الاوراق ، بدلا من اللعب بها !

ذلك فضلا عن أن اتفاق المصالح في عصرنا هذا لم يعد يعني بالضرورة اتفاق المبادىء . ونظرة سريعة على عداء الصين وروسيا ، ثم الغزل الصيني الامريكي ، ثم استرابة الاتحاد السوفيتي في الاحزاب الشيوعية الصاعدة في أوروبا . . هذه النظرة تؤكد أننا نعيش عصر سيادة المصالح ، وأن العالم ودع بالفعل عصر سيادة المبادىء ، ربما الى غير رجعة !

وليس بعيدا عن هذا كله تلك الانعكاسات التي يمكن ان تلقي بظلها ـ بعد ثورة افغانستان على الصق الجيران ، وأعني بهم إيران وباكستان .

فليس غريبا ان يحدث ما جرى في كابول « صدمة » لدى طهران وكراتشي . تمثلت في هذا الصمت المطبق الذي خيم على العاصمتين على أثر نجاح الثورة ، ثم تلك المشاورات العاجلة التي جرت بينهما قبل القبول بالامر الواقع ، واعلان الاعتراف ، ثم اعلان طهران رسميا انها مستعدة لدعم باكستان عسكريا لمواجهة أي تمرد في مناطق

الحدود بينها وبين افغانستان (وهم يقصدون بذلك قبائل الباشتون والبلوش) . .

وايران الشاه لم تكن تذود بذلك عن حياض باكستان ، ولكنها تدافع عن نفسها بالدرجة الاولى ، واذا كانت ايران قد تحركت لدعم سلطان مسقط وعمان في مواجهة ثورة ظفار ، دفعا لخطر توقعته عند مداخل الخليج البعيدة نسبيا ، فما بالكم بخطر صار ماثلا وراء ظهرها مباشرة ؟!

والمشكلة في ايران أن هناك ثروة البترول ، التي تغري الجميع ، قريبين وبعيدين . ثم إن هناك نظاماً أرستقراطيا اقطاعيا هو محل سخط شعبي كبير ، وأن هذا السخط يواجه بقمع شديد جعل العناصر المعادية للنظام تتزايد وتتجمع بعض الوقت . وفضلاً عن هذا وذلك ، فان تصرفات الشاه وموقفه من قضية التغريب والتحديث استفزت رجال الدين ذوي النفوذ الهائل هناك ، الامر الذي اضاف الى عناصر السخط قوى لها وزنها .

ولم تكن مصادفة ان يتفاقم الوضع في ايران ، وتخرج المظاهرات المعادية للشاه بعد أشهر من ثورة افغانستان . ورغم اختلاف توجه الثورة في افغانستان والتمرد في ايران ، الا أن المهم هو ريح التغيير التي هبت والمناخ الذي هيأته ثورة افغانستان ، بحيث انعش احلام الجيران المعارضين للشاه .

ورغم أن قبائل الباشتون والبلوش التي تطالب بالحكم الذاتي وتقرير المصير ، يعيش جزء منها داخل الحدود الايرانية ، الا أن حجمها هناك ليس بالوزن المؤثر ، الذي يمكن أن يسبب قلقا لايران الشاه بل أن هذا الحجم يتضاءل أكثر وأكثر ، إذا قورن بالعناصر الأخرى الأشد خطورة ، التي تهدد كيان النظام ذاته .

لكن قضية هذه القبائل تعني باكستان بالدرجة الاولى . .

وهي ليست مشكلة جديدة في الواقع ، ولكنها مشكلة قديمة ، تتصاعد وتهدأ تبعا « لترمومتر » العلاقات بين باكستان وافغانستان . كلما تحسنت العلاقات وازداد التقارب بين البلدين ، كلما اختفت قضية الباشتون والبلوش ، والعكس صحيح . وهذا التقلب حدث أثناء حكم الرئيس داود ذاته . اذ بدأ عهده في عام ٧٤ بالحديث عن قضية هذه القبائل وحقوقها التاريخية ، وقد كان مؤيدا من جانب اليسار الافغاني وقتئذ ولكنه بعد أن حدث التقارب السياسي بين البلدين ، قام بزيارة لكراتشي في عام ١٩٧٧ ، صرح على اثرها أن بلاده حريصة على ان يستمر « حسن الجوار » مع باكستان .

والواقع أن قضية هذه القباتل كانت مثارة حتى قبل تقسيم الهند وقيام دولة باكستان سنة ١٩٤٧ . وقد حدث في بداية الاربعينات أن توجه بعض شيوخ قبائل الباشتون الى العاصمة الهندية لشرح وجهة نظرهم في الانفصال . وكان وزير خارجية الهند وقتئذ هو رئيس

الوزراء السابق جواهر لال نهرو ، الذي اجتمع بالوفد ، واستمع الى قولهم أن قبائلهم لها جذور افغانية ، وان باشتونستان كانت تابعة لافغانستان ، ثم اقتطعت منها وضمت الى الهند بعد التقسيم البريطاني للحدود الجغرافية في المنطقة الذي تم عام ١٨٩٣ .

عندئذ قال نهرو انه اذا كان التاريخ هو الحجة ، فإن التاريخ يعطي حقا للهند في جزء كبير من أفغانستان ذاتها ، وهو الجزء الجنوبي الذي كان يعتبر ضمن شبه القارة الهندية ، التي كانت قائمة قبل أن تظهر أفغانستان على خريطة العالم في منتصف القرن الثامن عشر !

وعندما حان موعد قيام باكستان في سنة ١٩٤٧ ، وكان الاتفاق أن تنضم إلى باكستان المقاطعات ذات الأغلبية المسلمة ، بعد استفتاء يجري فيها ، عندئذ اختار أهل باشتونستان الانضمام الى باكستان ، واصبحوا منذ ذلك الوقت جزءا من الدولة الجديدة .

لكن نزعة الانفصال تحركت عند بعض شيوخ القبائل ، يغذيها بين الحين والاخر مناخ العلاقات بين كابول وكراتشي .

وبعد الثورة ، أرسل شيوخ قبائل الباشتون والبلوش برقيات تأييد لزعمائها ، من باب التذكرة بقضيتهم . ولم تتأخر حكومة الثورة في اعلان موقفها ، وفي أول كلمة القاها وزير خارجية افغانستان الجديد امام المجتمع الدولي - في اجتماع وزراء خارجية دول عدم الإنحياز بهافانا - قال ان الخلاف السياسي الوحيد بين بلاده وبين

باكستان يتمثل في مشكلة الباشتون والبلوش ، وأن أفغانستان ستسعى الى حل المشكلة بالوسائل السلمية « وفي ضوء الاعتبارات التاريخية للمنطقة » . .

وثمة تأكيد هنا في كابول أنه اذا أعطيت قبائل الباشتون والبلوش حق تقرير المصير ، فسوف تختار الانضمام الى افغانستان صراحة . أما إذا منحت حكماً ذاتياً، فان ذلك سيعد اقراراً ضمنياً بعدم أحقية باكستان فيها ، فضلا عن أنه سيصبح بمثابة تمهيد للانسلاخ عن باكستان .

واذا حدث ذلك ـ وأذكر أننا نتحدث عن احتمالات المستقبل ـ فانه يعني اشياء كثيرة :

ـ يعني أن تقتطع من باكستان مساحة ليست هينة ، يسكنها حوالي ٨ ملايين من المنتمين الى هذه القبائل . وهي ضربة قاصمة ، خصوصا بعد انفصال بنجلاديش عن باكستان في عام ٧٢ .

ـ ويعني أن تضرب الجسور الصينية التقليدية الممتدة الى باكستان ، ويكسب السوفييت نقطة في صراع النفوذ المحتدم بين موسكو وبكين .

ـ ويعني ـ وهذا هو الاهم ـ ان يتقدم السوفييت خطوة اخرى الى الامام ، في اتجاه بحر العرب ومخارج البترول العربي والايراني .

ذلك ان جزءا من قبائل الباشتو والبلوش يعيش في الأراضي الباكستانية الممتدة بين حدود أفغانستان الحالية ، وشاطىء بحر العرب .

وهذه الانعكاسات السلبية التي قد تلقي بظلها بصورة حادة على باكستان ، توقظ عند الهند فيما يبدو رغبة في تصفية الحسابات معها ، وربما حلما يجدد أملها في عودة شبه القارة الهندية الى ما كانت عليه قبل التقسيم في عام ٤٧ .

فقد سارعت الهند بالاعتراف بالنظام الجديد ، بعد ٢١ ساعة من تشكيل الحكومة . اعترف الاتحاد السوفيتي في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم ٣٠ ابريل (نيسان) . وجاء اعتراف الهند في الرابعة من مساء اليوم التالي .

وقد يقال في تفسير ذلك أن الهند تريد أن تثبت حضورها على مسرح الحدث الجديد في وسط آسيا . وقد يقال ان الهند لها مصالح في افغانستان : لها ٣٠٠ خبير غير جالية هندية كبيرة ، فضلا عن أن افغانستان بتعدادها المتواضع (حوالي ١٥ مليونا) ومساحتها الشاسعة (٧٢٠ الف كيلومتر مربع) وثرواتها الوفيرة ، تعد متنفسا جيدا للايدي العاملة الهندية ، وحلا لمشكلة الانفجار السكاني هناك .

قد يقال هذا وذاك في تفسير مسارعة الهند الى الاعتراف بالنظام

الجديد . ولكن أليس واردا ايضا أن يكون هناك سبب إضافي آخر ، هو الضغط على باكستان ولي ذراعها . خصوصا وأن هناك سابقة للهند في هذا الصدد ، عندما تدخلت عسكريا لدعم انفصال بنجلاديش، وشطر باكستان الى نصفين !

اذ كيف نتصور مستقبل باكستان ومصيرها ، بعد أن « علق » مستقبل كشمير المسلمة في مرحلة ، ثم انفصلت عنها بنجلاديش في مرحلة اخرى ، ثم اذا اقتطعت منها اراضي الباشتون والبلوش في مرحلة ثالثة ، وبعد هذا « التقزيم » تجد نفسها في مواجهة نفوذ دولة كبرى مثل الاتحاد السوفيتي ؟

واذا تحقق ذلك حتى في الأمد البعيد ، ثم خيرت باكستان بين أن يبتلعها السوفيت ، أو تبتلعها الهند ، أليس من المحتمل أن تختار الهند ، باعتبارها أهون الشرين ، خصوصا في ظل الرعب من كلمة « الشيوعية » .

قد تكون هذه مجرد احلام وأوهام ، ولكن لتتذكر أن أحلام الامس هي حقائق اليوم ، وأن أحلام اليوم هي حقائق الغد . وأن هذا هو أحد قوانين التطور !

واذا أضفنا الى هذا كله ان النظامين القائمين الان في ايران

تصفية اليسار سياسيا وجسديا ، وانما هو في هذه اللعبة الامريكية التي تصاعدت موجتها في وسط آسيا .

وفي ضوء هذه الاعتبارات ، فان مناقشة انعكاسات الثورة التي حدثت في أفغانستان على جيرانها ينبغي أن تتم في اطارات حسابات القوتين الاعظم ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وتصبح الاسئلة المثارة حول ردود الفعل المحتملة لدى باكستان وايران مرتبطة الى حد كبير بما يدور في كواليس البيت الابيض والكرملين .

ألسنا في عالم يحكمه الكبار ؟؟

لكن بعضنا ينشغل عن هذا كله ، يغمض عينيه ويصم اذنيه ، ولا يرى ما جرى في أفغانستان الا بمنظار واحد هو : أنهم ماركسيون !

وقد أذهب الى أبعد مدى مفترضا أن دافع هؤلاء هو الغيرة على الاسلام والخوف عليه ، الا أنني لا أفهم أن نسكت على ما فعله نظام داود بالقيادات المنسوبة للاسلام ، وبالمسلمين أنفسهم ، بدعوى أنه مسلم ثم نملأ الدنيا صياحا وصراخا عندما يتغير الوضع ويقبض على السلطة آخرون ، منسوب اليهم أنهم ماركسيون .

ويثير الدهشة في المنهج هنا ألا يرى بعضنا في شئون المسلمين الا ضبط علاقتهم بالله سبحانه ، رغم أن هذا امر يحاسبهم عليه الله ،

بينما لا يخطر لهؤلاء أن يبذلوا جهدا موازيا في اتجاه تصحيح واقع المسلمين انفسهم . .

وهذا المنطق يذكرنا بالمناقشات الفقهية التي جرت في الماضي حول الكافر العادل والمسلم الجائر وجرأة بعض الفقهاء في القول بأن الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر « لان الأول عليه كفره ولنا عدله ، والثاني له اسلامه وعلينا جوره » فيما يذكره الامام الشاطبي .

وللدقة أقول انه في حالتنا هذه ، فان قادة ثورة افغانستان يقولون أنهم مسلمون وموحدون بالله واقول ايضا انهم في قضية العدل « واعدون » ، وهو امر يحتاج الى وقت للتثبت منه .

اخيرا ، فانه تبقى اسئلة معلقة ، بعضها نملك الاجابة عليه ، وبعضها في علم الغيب . من هذه الاسئلة مثلا :

هل ستبقى الثورة في افغانستان على موقفها من الاسلام ، ام ستتحول عنه في مرحلة قادمة . أي هل موقفها الراهن هذا تكتيكي ام استراتيجي ؟

هل ينفلت العيار في لحظة حماقة من أي طرف وتحدث مواجهة بين الشارع الافغاني بقيادة رجال الدين وبين النظام الجديد ؟

هل يتحمل العالم العربي والاسلامي مسئوليته تجاه مسلمي أفغانستان ، ويمد جسورا قوية معهم ، أم ينطوي ويبتعد ويلجأ الى

القطيعة ، متأثرا بالمخاوف والخلفيات ؟

ثم ، هل تنبهنا تجربة أفغانستان الى ضرورة وجود تيار إسلامي ناضج ومستنير ، قادر على اقناع الجماهير والتقدم بها نحو المستقبل ، أم يظل الحال كما هو عليه ، فتضيع منا قيادة الجماهير ؟

وهل تدعونا التجربة الى أن نفتح الابواب لممارسة حرية الحركة والتعبير للجميع في النور ، قبل ان نفاجأ بالانفاق محفورة تحت كل الاقدام ، وفي الظلام ؟

ونغرس بأيدينا بذور زلزال جديد !

القسم الثاني

رحلة في المكان : الأثر والبشر

٧٩٠

الجبل : هذا اللاعب الماهر

(لو لم يبق للاسلام في الدنيا عرق ينبض،
لرأيت عرقه بين سكان جبال الهملايا (الهملايا) والهندوكش نابضا ،
وعزمه هناك ناهضا ـ الامير شكيب ارسلان)

تخدعك الوجوه ، وتخدعك الطبيعة في افغانستان . تعطيك انطباعا كاذبا لأول وهلة ، بل تلقنك درسا في كيفية الحكم على الأشخاص والأشياء .

ولن يستغرق الامر معك وقتا طويلا اذا كنت من « عربستان » . عندئذ ستتحول من ضيف ثقيل الى صاحب بيت ، وستطوى في لحظة زمن الاف الاميال ، وتقفز فوق كل الحدود والحواجز ، وترتفع فوق اشجار الانساب والاعراق والاجناس ، وتتفتح عيناك على الحقيقة .

اذا عرفت كلمة السر ، وقلتها ، معتزا بأنك « عربي » مستغربا لهؤلاء الناس الذين لم ينخفض بعد سعر العروبة في أسواقهم ،

مندهشا من أن العروبة « قيمة » هنا ، وليست شبهة ينبغي دفعها والتملص منها ، كما يفعل البعض في بلادنا . . بعد ان تفيق من هذه الدهشة ، وتتأمل ما حولك جيدا عن قرب ، سوف تكتشف أن وجوه البشر ليست منحوتة صخور من جبال هندوكش ، كما أن جبال هندوكش ليست فقط صخرا وحجارة ، وقمما ثلجية باردة !

واذا ثبت أنك من عربستان فعلا ، وحبذا لو كنت تحفظ بعض آيات القرآن الكريم ، فعندئذ سوف تختفي على الفور شلالات الشك التي تتساقط من عيون الافغانيين عندمايرون الغريب ، وسوف تنفرج أسارير معقودة معلنة الخصام والجهامه ، وتتحول الشقوق الغائرة في الوجوه الى بسمات تتراقص من الابتسام والفرحة ، وتنبسط لك الأيدي وتتفتح الاذرع .

« السلام عليكم » . . يبادرك الافغاني على الفور ، بينما عيونه مسبلة ، وكفه ممدودة على موضع قلبه . تهم بالرد ، فيجذبك من يدك برفق لتجلس زمنا الى جواره . وقبل ان تلتقط انفاسك ، يقدم اليك قطعة من الحلوى لتحتفظ بها في فمك ،وتشرب عليها الشاي الاخضر ، بدلا من السكر الذي يتناثر فتاته و يحتاج الى وعاء وملعقة ووجع رأس . تشرب مرة واثنتين وثلاثا . فالشاي هو مشروب الضيافة الحلال ، اذ السجائر عندهم مكروهة ، وهو يوسع

الشرايين وفاتح للشهية قبل الاكل ، ومهضم بعد الاكل ، كما يقولون ، وعند اغلبية الشعب الافغاني ، فالشاي مع الخبز واللبن المضروب هو الاكل ذاته ! يسألك الافغاني قبل ان ترفع الكوب الزجاجي الى فمك : من السعودية ؟ . . وما ان تشرع في الرد حتى يروي لك ما جرى في حجته الثانية ، وأنه في الحجة الخامسة كان في ضيافة جماعة من المشرق ، استراح بينهم ولله الحمد . أما في الحجة السادسة فقد ماتت أمه العجوز التي أصرت أن تزور البيت الحرام . رغم أنها كانت قعيدة ، واضطر ان يحملها الرجل فوق ظهره طول الوقت .

يثير انتباهك هذا التعلق الغريب بالاراضي المقدسة عند الافغان . وتعرف فيما بعد أن أكبر نسبة من الحجاج (بالمقارنة بعدد السكان) يجيئون الى السعودية من بلاد الافغان . وأن الافغاني فقيرا كان أم غنيا ، شيخا أم شابا ، لا بد أن يكون قد مر بمكة في رحلة حياته ، وأن الذي لم يؤد فريضة الحج يعاني من شعور بالذنب والاحساس بنقص في دينه . وانه عازم على ذلك ـ يجزم لك ـ في العام القادم بإذن الله .

وحتى لو كانت الترجمة غير دقيقة ، فانك تحس بعلاقة ود عميقة تربط بينك وبين الافغاني ، وأن الرجل كان يفتقدك طوال سنوات غيابك ، وأنك أخيرا عدت بشعور المتردد والغريب : . رغم أنك

عائد الى بيتك واهلك . . ألست مسلماً من عربستان (لاحظ أنهم يعتبرون كل عربي مسلم ، وأن غير المسلم في بلاد العرب إما أن يكون أجنبيا او مرتدا ، وهي الفكرة السائدة في أطراف العالم الاسلامي) . .

تكاد تخجل ، وتندم ـ مثلي ـ على لحظة ظلمت فيها هؤلاء الناس ، ورأيتهم فقط من خلال المدية الفارسية الكبيرة ، التي يحتفظ كل منهم بها في جيبه . وتدرك كم كانت خاطئة وكاذبة تلك النظرة الاولى !

مع الطبيعة تمر بنفس التجربة . .

امام الجبال الهائلة التي تكاد تناطح سحب السماء ، والصخور الداكنة المكشرة الانياب ،والصحراء الواسعة التي تتردد في أرجائها اغانٍ للرعاة لا تفهم معناها ، وانما تنفذ نغمة الحزن فيها إلى أعماقك ، محمولة على سهم يقطر دمعا . . أمام هذا كله تحس بالاكتئاب والضيق .

واذا كنت تستطيع أن تتعرف على الإنسان الأفغاني وأنت قاعد في حلقات الشاي التي لا تنفض أبدا ، إلا أن التعرف على الطبيعة الافغانية ورؤ ية الحقيقة فيها ، لا بد له من أن تركب الصعب . والصعب الذي اعنيه له اسماء متعددة:سيارة جيب . نقل . باص .

جمل . بغل . (بسبب تضاريس المنطقة فشلت محاولة اقامة شبكة للسكك الحديدية في افغانستان) ذلك انك خلال تجوالك تكاد تقتنع في بعض الأحيان بأنه لا فرق بين الجيب والجمل ، أو الباص والبغل . فالكل يمضي بسرعة واحدة ، وله مشقة واحدة . فلا أنت محمي من الشمس الساخنة ، ولا ضلوعك سالمة من الكدمات والرضوض ، ولا رأسك ثابت فوق جسمك ، ولا كوب ماء يرطب حلقك المشقوق !

و . . تتعدد الاسباب ، و« الكرب » واحد !

فافغانستان بلد منحوت في الصخر . الناس هناك زرعوا دولة فوق « تشكيل جيولوجي من الدور الثالث »كما تقول الموسوعة العربية ـ الذي هو عبارة عن أحجار رملية وجيرية . . وهي « جزء من سلسلة مفصلة من الاحواض الهضبية المرتفعة ، المغلقة حلقاتها ، التي تمتد من البلقان فالاناضول ، فإيران الطبيعية حتى مشارف السند » . . وهي الحيثيات التي استند اليها الدكتور جمال حمدان استاذ الجغرافيا السياسية في اعتبارها بلاد « الاسلام المعلق الذي يعتلي ظهور هذه القلاع الطبيعية الشماء . » .

وقبل ان تكون هناك جيولوجيا وأحواض هضبية ، وحتى قبل ان تكون هناك أفغانستان ذاتها ـ عندما كانت خراسان ـ زارها الرحالة والجغرافي العربي ابن حوقل (القرن العاشر الميلادي) ، وانبهر بما

رآه ، فكتب في « صورة الارض » يقول : واما خراسان فتشتمل على كور عظام وأعمال جسام !

والرجل كان على حق . الانسان يقف بشعور يختلط فيه الذهول بالعجز امام سلسلة الجبال الشامخة التي تتفرع عن هضبة « البامير » التي تطل من علٍ قرب زاوية التقاء الحدود السوفيتية الايرانية ، حيث تتوزع الجبال من «البامير» في ارتفاعات متفاوته تتراوح بين ٣٠٠٠ و٣٦٠٠ متر . ولا تكاد ترى قممها في مناطق اخرى داخل افغانستان ، اذ يصل ارتفاعها الى ٦٠٥٩ مترا . وتستحق عن جداره وصف « سقف العالم » ، الذي يطلقه عليها الجغرافيون .

جبال شاهقة في كل مكان ، تتولد عنها جبال وجبال وكلها مكسوة بعمائم ثلجية بيضاء على مدار العام تقريبا . والانهار ابنة شرعية لتلك الطبيعة الجغرافية الصعبة . اذ عندما يذوب الثلج ينشق مجرى النهر .

فهذه جبال هندوكش العظيمة في الشمال الشرقي ، تزحف نحو الغرب فتحمل اسماء اخرى مثل جبل بابا وجبل سفيد وسياه بيك . وهذه جبال سليمان التي تتجه الى الجنوب في حزام للحدود الطبيعية بين افغانستان وباكستان . والتي يتخللها ممر خيبر الشهير واصلا بين الدولتين ، ومشكلا نافذة لافغانستان على العالم الخارجي ، عبر بيشارو ثم ميناء كراتشي الباكستانيين .

وهذه « مجموعات » أنهار السند في الجنوب وهلمان في الوسط وجيحون في الشمال ، تشكل الشرايين الاساسية للحياة في افغانستان . وتتلوى فروعها كالثعابين وسط الجبال والوديان . . تتجمد فيها المياه في ليالي الشتاء . ثم تذوب عندما تطلع الشمس . .

هكذا يبدو وجه الطبيعة الافغانية ، لاول وهله ـ ومثل الافغاني تماما ـ لا ترى فيها سوى تلك القسمات التي تنطق بالجهامة والقسوة . . لكنك بعد ان تقترب منها اكثر . . و« تركب الصعب » ، وتفعل ما فعلناه تكتشف أن لافغانستان الطبيعة وجها آخر ، بل وجوها بالغة التشويق والاثارة ، لا ترى فيها قسمات الجبل ، وان كنت تلمح بصماته وتشم رائحته دائما .

ذلك انك ترى الجبل في قراءة تاريخ افغانستان . وتراه في تركيبة المجتمع هناك . وتراه في سلوك الناس وعاداتهم وجدهم ولهوهم . . تماما كما تصطدم به في عيون البشر وخطوط وجوههم الجامدة . . .

باختصار فان المفاتيح والمغاليق في أفغانستان معقودة على الجبل

لهذا السبب ، كانت افغانستان وما زالت ، قلعة استعصت على الغزاة عبر التاريخ ، وظل الافغاني انسانا صعب المراس ، لا يلين ولا يهزم .

أشهر الغزاة في التاريخ مروا بها ، ولكن احدا منهم لم يهنأ على ارضها ولم يستقر . . الاسكندر الاكبر . وجنكيز خان وتيمورلنك (نابليون بونابرت ارسل مبعوثا الى كابول ليمهد لفتح الهند ، لكنه لم ينجح في سعيه) وجيوش القياصرة : قياصرة الروس والامبراطورية البريطانية . جميعا مرت جحافلهم فوق صخور افغانستان . .

الاسلام وحده هو الذي بقي ، منذ طرق أبواب سجستان وخراسان في عهد عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان حتى استقر بها في منتصف القرن الثاني الهجري . . ربما لان المسلمين لم يكونوا غزاة ، بل كانوا فاتحين ومبشرين .

والافغاني هو من اكثر المقاتلين جرأة واقتحاما . وشجاعته ـ خصوصا قبائل فورستان والطاجيك ـ هي مضرب الامثال دائما . واشهر اغانيه القديمة تلك التي تقول : « خير لك ان تعود الى بيتك مخضب الدماء ، على ان تحيا حياة الجبناء » وربما كان شعب افغانستان هو الشعب المتخلف الوحيد الذي صنع البندقية والمسدس بامكانياته الفقيرة منذ زمن بعيد . بل وتفنن في تجميل كل منهما الى حد تطعيم مقبض السلاح بالزخارف والاصداف . وفي اسواق كابول القديمة تعرض كميات هائلة من هذه البنادق، والمسدسات القديمة . والخنجر والمدية لا يزالان يباعان على الارصفة بكثافة غير

عادية وعندما اتيح لنا ان نشهد احدى مباريات رياضتهم الشهيرة « بوزكاشي » ، اكتشفنا اننا دعينا الى ساحة قتال ، رغم اننا كنا في استاد كابول ، والارض مكسوة بالحشائش الخضراء . اذ يصطف الفرسان على جانبين متقابلين ومتباعدين . وعلى الارض - في دائرة تتوسط الفريقين - يضعون ماشية مذبوحة ومقطوعة الرأس - خروف او عجل صغير - ثم تعطى اشارة البدء ، فينطلق الفرسان يسابقون الريح من اجل التقاط الماشية المذبوحة . تتلاحم الخيول وتتصادم الاجسام التي تتصبب عرقا ، ويقع من يقع تحت سنابك الخيول ، حتى يمرق احدهم كالسهم من وسط الجميع . بينما الجماهير تصيح « واردار . . واردار » (أي التقطها) - وببراعة غير عادية يميل الفارس بجواده المندفع ، ويلتقط الجثمان الملقى على الارض ، ويواصل الجري بينما رفاقه حوله ، وفرسان الفريق الاخر يستخدمون كل قواهم من لانتزاع الذبيحة . . وهكذا يتسابقون ، وينظم « دوري » لهذه المباريات ، ويمنح الفريق الفائز « كأسا » في التصفية النهائية التي تقام في عيد « النوروز » من كل عام .

وفي الماضي كانت تستخدم السلاسل الحديدية والخناجر في هذه « المباريات » ، لكنها منعت الآن . وهم يقولون ان هذه الرياضة من بقايا عصر الاسكندر الاكبر (عام ٣٢٠ قبل الميلاد) ، بينما يرى آخرون أنها من عهد جنكيزخان في القرن الثالث عشر الميلادي . وأصلها أن الغزاة الاوائل كانوا يهاجمون معسكرات اعدائهم قبل

الفجر ، ويقومون بفك الخيام التي ينامون فيها ، ثم يطلقون لجيادهم العنان ، فتنهار الخيام على قاطنيها . . وبعد ذلك ينقض عليهم الغزاة ويبيدونهم . . تماما كما ينقض الفرسان على الذبيحة الآن يلتقطونها من فوق الارض . .

وحتى اذا لم يكونوا مقاتلين احفاد مقاتلين ، وحتى اذا لم تعلمهم الطبيعة القاسية روح التحدي والنضال ، فان « الزمن » كان سيجبرهم على ذلك !

أي انه اذا لم يكن الافغاني « بطلا » بطبيعته ، فهو « مكره » على ذلك !

ذلك ان طبيعة موقع افغانستان لها خصوصية نادرة ، جعلت من هذا البلد الصغير (٧٢٠ ألف كيلومتر مربع) الذي لا يزيد في مساحته عن ولاية تكساس الامريكية ، مفتاح وسط آسيا ، جسرا يؤدي الى اكبر دول القارة المحيطة بها ، الاتحاد السوفيتي والصين وايران وشبه القارة الهندية . لذلك كان الجميع يطمعون فيها ، اذ أن السيطرة عليها من قبل أي قوة ذات شأن ـ عسكرية أو غير عسكرية ـ يعني على الفور الوصول الى ابواب بقية الجيران .

وفي العصر الحديث ، فان روسيا القيصرية طالما سعت الى السيطرة على أجزائها الشمالية ، بينما كان الاستعمار البريطاني المتربص في الهند ، يبذل جهداً موازياً أوصله الى كابول العاصمة

اكثر من مرة . ولمافشلت كل منهما في فرض قبضتها على أفغانستان ، كان الاتفاق الضمني على حيادها ، الذي استمر بعد ذلك ، حتى عندما ورثت امريكا نفوذ بريطانيا في آسيا ، بعد الحرب العالمية الثانية .

والقوة الوحيدة التي استقرت في افغانستان ـ الاسلام ـ استطاعت من هذا الموقع الخطير أن تبسط نفوذها الكفري والسياسي على شبه القارة الهندية وغرب الصين ، والجزء الجنوبي من الاتحاد السوفيتي الآن (سجستان وتركستان في الماضي) .

وثمة رأي يقول ان هذا الزحف الاسلامي الذي انطلق من افغانستان منذ القرنين السابع والثامن الميلاديين ، كان سببا في قدوم طلائع الاستعمار الغربي الى آسيا . وهذا الرأي يتبناه بقوة ـ مع مؤرخين آخرين ـ الكاتب السياسي الهندي ك . م . بانيكار ، في كتابه « آسيا والنفوذ الغربي » . اذ يصف هذه الطلائع التي قدمت الى القارة في القرن الخامس عشر بانها كانت بمثابة « حرب صليبية جردها الغرب لوقف المد الاسلامي الى آسيا » ، الذي انطلق من قلعته الحصينة في خراسان . (لم يسقط المؤلف اسباب الغزو الاخرى ، وفي مقدمتها طمع المغامرين الاوروبيين في ثروات آسيا من الشاي والبن الى التوابل والحرير) .

ويقول بانيكار « ان هذا هو ما يفسر اهتمام البابا برحلة

فاسكو دي جاما الى آسيا عام ١٤٩٨ ، وارساله بعض رجال التبشير معه ، وإسباغه على هذا الاتفاق البرتغالي بركات الكنيسة ودعوات القسيس » .

وبسبب من ظروف الطبيعة في افغانستان ، وطباع وقيم الافغان أنفسهم ، الموروثة والمكتسبة ، وهي ظروف توافقت معها توازنات القوى الكبرى على مر العصور ، بسبب من هذا كله ، بقيت أفغانستان بلدا لم يستعمر في تاريخه ، وإن كان قد رأى الوجه القبيح للاستعمار في بعض صفحات هذا التاريخ .

وعندما صار العالم الاسلامي كله بعد الحرب العالمية الثانية تحت سيطرة ونفوذ الاستعمار الغربي ، شذت عن القاعدة بلدان فقط هما : المملكة السعودية وافغانستان .

بل ان المرة الوحيدة التي أفني فيها جيش لبريطانيا من جانب دولة صغرى ، والامبراطورية في اوج جبروتها وهيلمانها (القرن التاسع عشر) ، هذه « الواقعة » حدثت في افغانستان ، وعلى أيدي فرسانها البواسل والأشداء !

كابول جورج ، او مضيق كابول . . هو اسم المسرح الذي شهد « تراجيديا » جيش الامبراطورية ويبدو ان هذا الاسم محفور بعمق في الذاكرة الانجليزية بحروف من دم . لأنني قرأت كتابا لرحالة

انجليزي هو أندرو ويلسون ، يسجل فيه انطباعاته ومشاهداته في افغانستان ، ولم يفته أن يشير الى أنه قرأ وهو طفل قصة إبادة الجيش البريطاني في الصحف الانجليزية ، ولا يزال يذكر اسم الطبيب الضابط « برايدون » ، وهو الوحيد الذي نجا واستطاع الهرب الى بلدة جلال اباد ويحمل نبأ الفجيعة الى الحامية الانجليزية الكائنة فيها .

وقعت الواقعة في عام ١٨٤٢ ، ولا يزال الكاتب الانجليزي يذكر تفاصيلها ـ او هكذا قال على الاقل ـ وهو يعد كتابه في ثلاثينات هذا القرن !

وكما يفعل البعض ، يبدأون زياراتهم للبلدان الاخرى بالذهاب الى قبر الجندي المجهول ، قررنا أن نفعل نحن نفس الشيء . . أن نذهب الى حيث الجيش البريطاني المقتول !

وهكذا ، كان هدفنا في يومنا الأول هو كابول جورج . .

خيل الينا في لحظة أننا صاعدون الى السماء . فلا تكاد السيارة تبلغ قمة جبل حتى نفاجأ بأن السائق حميد الدين قد استدار صاعدا الى قمة أخرى ، بمنتهى البرود ، كأنه صعد الدرج في بيته . والطريق ضيق ، من ذلك الطراز الذي نراه في الافلام الامريكية . ذلك الشريط المخيف الذي تلمحه على حافة جبل شاهق ، ويسقط قلبك بين قدميك عندما تتصور تلك السيارة المنطلقة على الحافة ،

وقد هوت بركابها فوق صخور الوادي السحيق . ويظل المخرج يتلاعب بأعصابك ، فتنحرف السيارة تارة ، ويعترضها حيوان شارد تارة اخرى ، ثم تكاد تصطدم بشاحنة قادمة في الاتجاه المعاكس . . وهكذا .

لكننا لم نكن متفرجين على المشهد ، بل كنا أبطالا له رغم أنوفنا ، أو بتعبير أدق ، كنا ضحاياه ! وهذا الذي يتفنن فيه المخرج ليدغدغ أعصاب المشاهدين ، ساقه الينا القدر حدثا بعد الآخر ، وعشناه ـ أو متناه !ـ لحظة بلحظة . . وتلك قصة أخرى على كل حال ، من ذلك النوع المضحك المبكي !

لكن الأهم من هذا كله أن إخواننا الأفغان كانوا يسيرون فوق هذا الطريق الجبلي الذي يرتفع الى ثلاثة آلاف متر وكأنهم يتنزهون على ساحل رملي ناعم في ساعة عصر هنية ! . راكبو الباص لا يكفون عن الصياح والضجيج ، وراكبو سيارات النقل المزركشة ـ وهم الاغلبية ـ جلسوا بأرجل مدلاة فوق الأثاث والبضاعة ، وقد مدوا أبصارهم في استمتاع رصين بمشهد الصخور المدببة القابعة في عمق الوادي ، التي تتقافز فوقها الثعالب والغزلان والقطط البرية . بينما لم نكن نرى في تلك الصخور الا أنياب حوت كبير تمدد فاغرا فاه ليتلقف الواحد منا عند أول إنحناءة للطريق !

سائق سيارتنا حميد الدين ـ مثل كل الافغان ـ كان يحفظ القصة .

ليس فقط لأنها حدث فريد يتفاخر به الجميع هنا ، ولكن لأن أحد أجداده اشترك في الموقعة ، على حد قوله . وبانجليزية ركيكة ، وكلمات عربية لا رابط بينها ، وبالاشارة كلما تيسر ، مضى الرجل يحكي ويشرح . .

وكانت القصة مسجلة في كل كتاب يتحدث عن افغانستان أو يروي تاريخ الاستعمار في آسيا . وتبدأ بخلاف بين شقيقين على الملك ، احدهما « شجاع الملك » الذي فر الى الهند للاحتماء بالانجليز ، والثاني « دوست محمد خان » الذي استولى على السلاح وتحالف مع الروس . ليواجه المخاطر التي قد تتهدده من أخيه . وكان ذلك كافيا لخروج حملة انجليزية من الهند الى افغانستان (عام ١٨٣٩) ، ووجهت برفض الاهالي وثورتهم ، وأدت الى قتل المعتمد البريطاني في كابول ، وبعد ثلاث سنوات حافلة بالمتاعب ، لم يجد الانجليز مفرا من الانسحاب وسط صقيع الشتاء . وكان عددهم بين ١٦ و١٧ ألف شخص ، بينهم ٤٥٠٠ مقاتل على ما تقول الروايات ، والباقون من المدنيين ، الانجليز والهنود . خرج الموكب من كابول ، ليفاجأ بكمين منصوب له عند المضيق ، واستطاع الأفغان أن يبيدوا الركب عن آخره ، حتى استحق المضيق عن جدارة وصف « مقبرة الغزاة » (كلفت هذه العملية شعب افغانستان الكثير ، اذ دمرت كابول العاصمة على من فيها تقريبا) .

لكن هذا الصراع على النفوذ (الروسي البريطاني) هو الذي أشعل حربا ثانية بعد ذلك بسنوات قليلة (عام ١٨٧٨) في افغانستان ضد بريطانيا ، كبدتها خسائر فادحة ، وانتهت بانتصار للانجليز لم يهنأوا به ، بسبب ثورات الافغان التي لم تتوقف ، حتى اضطروا الى اعلان استقلال افغانستان عام ١٩٢١ .

ومنذ ذلك التاريخ توقفت الغارات الخارجية على أفغانستان ، لكن التصفيات والصراعات الداخلية ظلت مستمرة(*)

وظلت موقعة مضيق كابول رمزا لانتصار الافغاني ، الذي خاضها راكبا الجبل !

التقطنا انفاسنا ، ووقفنا فوق قمة الجبل نطل على الوادي البعيد ، ولم نكن بحاجة الى من يشرح لنا كيف توفرت للمكان كل المقومات التي تهيؤه ليكون مسرحاً لمذبحة !

استرجعت وقفتنا في العام الماضي على مشارف « خندق الدم » الذي دفن فيه آلاف من مسلمي جبال « البشرات »(*) في الاندلس ،

---

* منذ بداية هذا القرن لم يستقر حاكم على عرش افغانستان . وقد قتل حبيب الله خان الذي تولى السلطة سنة ١٩٠٤ واضطر ابنه امان الله للتنازل عن العرش الهرب ، واستولى على السلطة بعده من اطلق على نفسه اسم حبيب الله غازي الذي أعدم شنقاً ثم تولى محمد نادر شاه الذي قتل وهو يوزع الجوائز عقب مباراة لكرة القدم ! اما ابنه محمد ظاهر شاه فقد واجه انقلابا وهو في الخارج فبقي في المنفى الى الآن ، والرئيس محمد داود الذي قاد هذا الانقلاب قتل في ثورة ابريل (نيسان) التي قامت هذا العام !

* مجلة « العربي - العدد رقم ٢٢٨ - نوفمبر ١٩٧٧ - استطلاع غرباء الاندلس .

بعدما سقطت غرناطه ، وثاروا على قرارات تنصيرهم التي اصدرتها الحكومة الاسبانية في بداية القرن السادس عشر ، فحصدتهم المدافع وألقيت جثثهم في وادي عميق ، لا يزال يحمل اسم « خندق الدم » حتى الآن في مناطق البشرات تحركت في مشاعر القبيلة ، وقلت : واحدة بواحدة !!

«موزاييك» أفغانستان

وعدنا إلى كابول ، واجهة أفغانستان الزجاجية . .

واذا كانت العاصمة في البلاد النامية تكتسب خطورة مستمدة من تواجد السلطة بها ، حيث السلطة هي كل شيء وان قالت غير ذلك تواضعا ، فانها في أفغانستان أشد خطورة . لأن حضور السلطة في كابول ليس الا أحد عناصر اهميتها ، بينما الأهم من ذلك أنها تعكس الواقع الافغاني كله ، السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وكما أن زيارة أي « متحف » تنقلك الى عوالم عديدة عبر القرون ، بينما أنت تتسكع متثائبا بين أركان قاعة او اثنتين ، فان زيارة كابول تعطي نفس الانطباع هي « متحف حي » اذا صح التعبير . والجولة في شوارعها لا تعرفك بالعاصمة فقط ، ولكنها تنقلك ـ ايضا ـ الى كل بقعة في ارجاء افغانستان ، من أقصاها إلى أقصاها .

والواقع أن كابول «الموضع»، اي المكان، قديم قدم بلاد الافغان ذاتها . ويقال أن « أفغان » هو حفيد بنيامين بن يعقوب عليه السلام ، الذي سافر مع أبنائه الاربعين عندما حلت الكارثة ببني اسرائيل ، واتجه الى هذه المنطقة الواقعة شرقي بلاد فارس ، وأقام فيها .

وعندما زارها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي ، كتب يقول : ثم سافرنا الى كابل . وكانت فيما سلف مدينة عظيمة ، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لها الأفغان ، ولهم جبال وشعاب ، وشوكة قوية ، وأكثرهم قطاع طرق .

أما كابول « الموضع » ، الخصائص والدور ، أي القيمة غير المنظورة ، والتقسيم للدكتور جمال حمدان ـ فهي حديثة العهد نسبيا ، وهي مرتبطة بمولد افغانستان الدولة في القرن الثامن عشر . قبل ذلك لم تكن الخريطة السياسية لوسط آسيا تعرف دولة بهذا الاسم ، كانت هناك مقاطعات وممالك متناثرة وقبائل راحلة وراء العشب والمطر . وكانت الممالك القائمة وقتذاك هي خراسان وسجستان وتركستان والهند .

وقبل دخول الاسلام كانت هناك الهندوكية ثم البوذية ، ويقال انهما ظهرتا لاول مرة في هذه المناطق ثم زحفتا الى بقية دول آسيا . وحتى بعد الاسلام ، لم تقم الدولة الواحدة ، بل قامت دول عديدة

تعتمد على العصبيات والأسس العرفية وانفرط عقد خراسان وسجستان وتركستان ، وعرف تاريخ المنطقة سجلا طويلا من الدويلات الصغيرة ، الطاهرية والصفارية والسامانية والغزنوية ، والسلاجقة ، والخوارزمية ، والمغول والأوزبك . . . الى آخر القائمة .

وكلما ازداد التدهور في بناء الدولة الاسلامية ، كلما تصاعد دور العصبيات ، وازداد توالد الدول والدويلات وأطلت الصراعات والنزاعات بوجهها الكريه .

وقد لعب « الجبل » دورا محسوسا في هذه التقلبات السياسية . اذ كانت الطبيعة الجغرافية ممثلة في الجبال الشاهقة هي الجدران التي قسمت بها القبائل « البيت الكبير » ، واحتمت بها لتنمي بذور العصبية ، وتقيم من تلك العصبية « دولا » هزيلة .

أي أن تضاريس المنطقة كانت بمثابة الحدود السياسية لتلك الدول والممالك الصغيرة . وبذلك صنعت جغرافية المكان خريطة جغرافية الزمان ايضا !

لا تزال هذه التضاريس تلعب دورها حتى الان في تقسيمات افغانستان ، اذ يبلغ عدد قراها اكثر من ٢٢ ألف قرية .

غير أنه في منتصف القرن الثامن عشر ، وبينما الصفويون ذوو

الاصول الفارسية يتنازعون السلطة مع المغـول في المنطقـة ، ظهـر الملك أحمد خان (عام ١٧٤٧ م) الذي وحـد السلطـة السياسية في تلك الممالك المتناثـرة . وأورث الحـكم لاحفـاد من سلالـة الاسرة الـدورانية (نسبـة الى دري دورانيه أي درة العصر) ، وآخرهـم الرئيس محمد داود ، الذي قتل في انقلاب ابريل (نيسان) الماضي .

وطوال سنوات حكم احمد خان كانت قندهار (جنوبي كابول) هي العاصمة ومقر الحكم ، ولكن ابنه وخليفته تيمور نقل الحكم الى كابول . .

وصارت قرية الأعاجم التي تحدث عنها ابن بطوطـه ، عاصمـة لدولة افغانستان !

ترقد كابول تحت اقدام جبل سليمان ، الذي تقول الاسطورة أن سيدنا سليمان عليه السلام صعد فوقه والقى نظره الى الهند ، ثم رجع ولم يدخلها ، فسمي الجبل باسمه !

يقف الجبل حارسا للمدينة ومحتضنا لها ، ولا تختفي الثلـوج من فوق قممه البعيدة ، وتظل طوال العام تمد يدها لنصف المليون من البشر الذين يسكنون العاصمة . اذ تنساب المياه من الجبل ، حتى تصل الى مداخل المدينة ، وتنتظم في قنوات رفيعة موزعة على ابرز

الشوارع ، ومنها يغتسلون ويتوضأون .

ونهر كابول بجسوره الستة يروي قصة المدينة القديمة . وعلى جوانبه تمتد محلات السجاد والباعة الذين ينثرون بضاعتهم فرق الأرصفة ، وقد استندوا بظهورهم الى جدران البيوت ذات الطراز العتيق ، بينما المدينة الجديدة لا ترى النهر ولا تتعامل معه ، فهي طرف آخر ، ولها طراز آخر ، وعالم مختلف نسبيا .

ولأنها تعكس الواقع الافغاني ، فثمة مناطق في كابول تنتمي الى القرن العشرين ، واخرى تتراجع قرنا الى الوراء ، واذا ذهبت الى حي « الاصمعي » الذي تطل بيوته المبنية من الطين من فوق سفوح جبل سلمان ، فانك ستنتقل تلقائياً الى قلب القرن التاسع عشر .

بعض البيوت أقرب الى الكهوف ، صغيرة وضيقة وبغير أثاث . بل ان اكثر بيوت فقراء الافغان لا تعرف الأثاث ، والسجاد هو كل متاعهم . وعندما صنعت قبائل نورستان المقاعد الخشبية ، أعتبر ذلك حدثا هاما ومثيرا . أما متوسطو الحال فأثاثهم هو السرير المصنوع من جذوع الشجر والحبال ، وهو ما يطلقون عليه « جاربائي » .

ومنظر « السقاء » مألوف في العاصمة . اذ هناك بيوت لا تدخلها المياه ولا الكهرباء . ولضيق طرقاتها فان البشر وحدهم هم الذين يدخلونها بالكاد .

وكما في تصميم مدننا الشرقية ، لكل حرفة سوق . . النجارون والحدادون والصفارون (باعة النحاس) واللحامون والخبازون والصباغون والعطارون . . . وهكذا . وللسياح سوق بل أسواق قلب المدينة مخصصة لهم . حتى « شارع الدواجن » الذي كان سوقا للخضراوات والطيور انقلب الى سوق كبيرة للسياح ، ولا يزال محتفظاً باسمه القديم . إذ ينصب هناك انتاج كل القبائل والمقاطعات الافغانية:السجاد التي صنعته ايدي بنات التركمان ومروى ، والجلود والفرو والعقيق من مناطق الطاجيك ، الصدارى المطرزة من غازني ، الحلى والاساور الفضية من بلاد التركمان ونورستان ، البنادق والمسدسات المشغولة بالعاج من مناطق الهزارة . .

« تشكيل » البشر في الشوارع يرسم لوحة تعبر عن طابع « الموزاييك » الذي يميز أفغانستان . الأجناس المتعددة المختلفة المشارب والاشكال ، والتي تتداخل كلها في نسيج واحد .

فهؤلاء هم أبناء الطاجيك والباشتون بقمصانهم الطويلة والبنطلونات الفضفاضة ، والعمائم الكبيرة ، التي يبلغ طول قماشها ٤ أمتار في المتوسط ، تلتف كلها حول الرأس ، ويتدلى منها نصف متر فقط على الصدر .

وهؤلاء هم التركمان والأوزبك بأحذيتهم العالية وثيابهم المخططة ذات الالوان الزاهية ، والى جانب هؤلاء وهؤلاء تلمح نساء الافغان

https://facebook.com/groups/abuab/

اللاتي يرتدين « الشودري » ، ذلك الرداء الملون الذي يغطي الجسم كله . من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وتتخلله ثقوب صغيرة أمام العينين فقط .

وبقدر اختلاف الثياب تختلف الوجوه والاجسام ، الأفغان بقاماتهم المديده ولحاهم السوداء الكثة ، والمغول والتركمان بعيونهم الضيقة ، وأنوف الاول مفلطحة وأجسامهم تميل الى القصر ، بينما أنوف التركمان صغيرة ودقيقة ويميلون الى النحافة ، وذوي الأصول الفارسية بعيونهم الواسعة ووجوههم المستديرة وسكان هندوكش الآريون ببشرتهم ذات اللون الاشقر ، التي يصعب اكتشاف طابعها الآسيوي .

وهؤلاء لا يتكلمون لغة واحدة لأن لغات أفغانستان يصل عددها الى ٢٠ لغة محلية تقريبا ، وان كان « المعتمد » لغتان فقط « الباشتو » التي هي خليط من الأردية والانجليزية والعربية ، و« الداري » ، وهي خليط من الفارسية والعربية والصحف تصدر باللغتين ، ونشرات الاذاعة تقرأ بهما . الخبر الواحد يقدمه مذيع الباشتو ، يتلوه على الفور مذيع لغة الداري.كل تلك الاشكال والالوان والأجناس تمر أمام عينيك في شوارع كابول ، حتى لا تكاد تصدق أنهم ينتمون الى بلد واحد ويحملون جنسية واحدة .

ولولا أنك ترى المياه التي تنساب من الجبل في شرايين تتمدد حيثما ذهبت ، وتشم عطر اشجار « الشنـج » الـذكي في كل الشـوارع ، وتلمح أقفاص العصافير الملونة تطـل من النوافـذ ومداخـل المحـال التجارية كلما تطلعت الى الواجهات في المدينة القديمة او الجديدة . . لولا هذه المعالم المشتركة ، لقطعت بانك تطوف بدول مختلفة ، لا رابط بينها .

وهنا ايضا يطل دور « الجبل » برأسه ، وتتذكر السياج الطبيعـي الذي أقامه حول تجمعات القبائل ، والذي افسح الطريق لرسـوخ تلك القسمات المميزة .

وهذا التنوع ، رصدته عين ابن حوقل عندما زار المنطقة ، فكتب يقول « وبخراسان من الدواب والرقيق والأطعمة والملبوس مما يحتاج الناس اليه ، وينقل الى سائر الاقطار عنهم . وأما الدواب فأنفسها ما يقع من نواحي بلخ . وأنفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ، ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الأرض . . . وأنفس ثياب القطن والابـرسيم ما يرتفع من نيسابور ومرو . واخيراً لحم الغنم وألذه ما يجلب من بلاد الغزبة ، وأعذب المياه عندي واخفها ماء جيحون . . وأيسر أهل خراسان اهل نيسابور . وأنجب بلدان خراسان أهل بلخ ومرو في الفقه والدين والنظر والكلام » .

على أن ما يثير الانتبـاه فعـلا في شوارع كابـول ، هو جماعـات

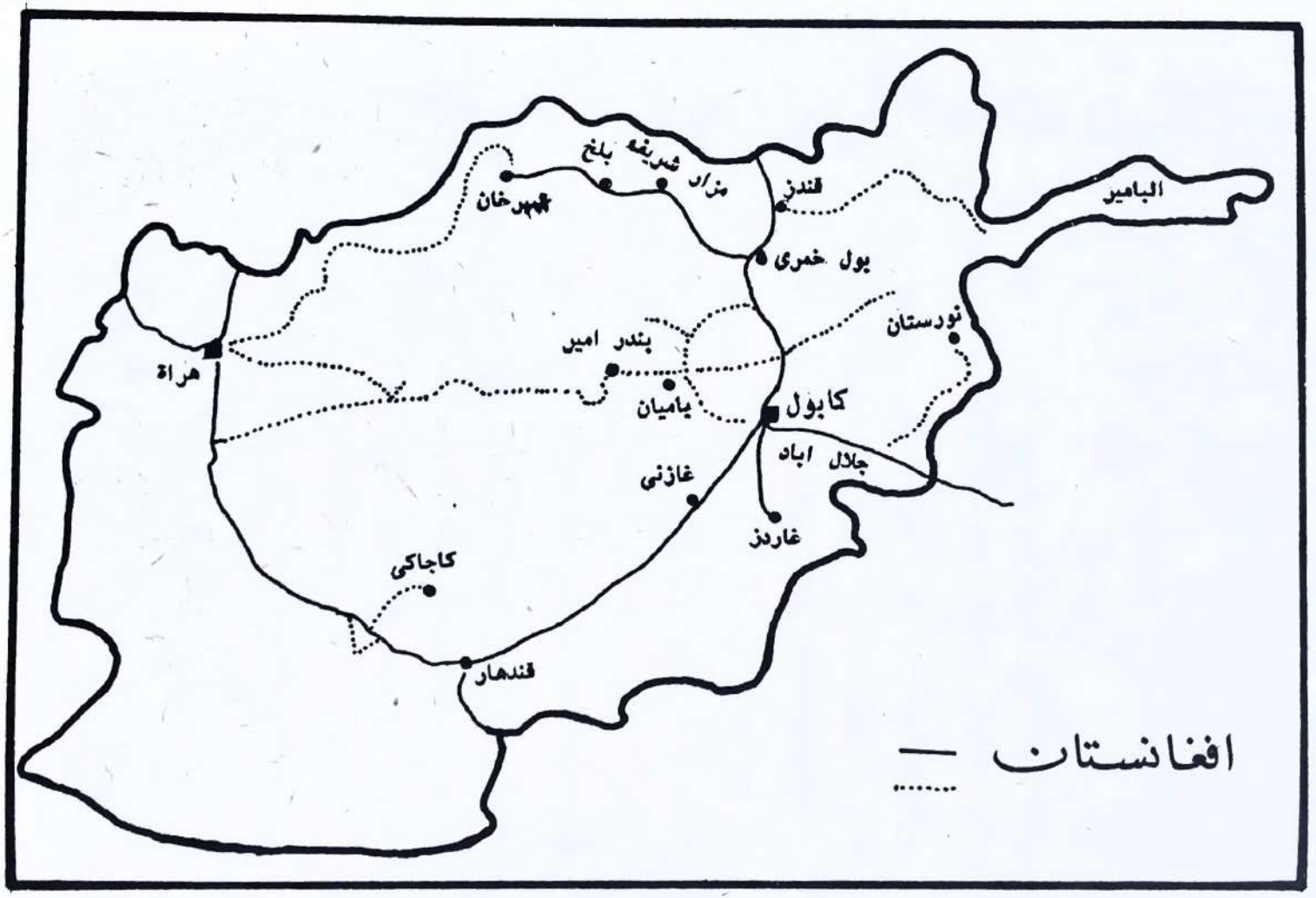

خريطة لأفغانستان

« الهيبيز » التي تبدو وكأنها قوافل بغير نهاية ، موزعة حلقاتها على مختلف الارصفة والشوارع والازقة .

سألت مرافقي ، فضحك وقال : ليسوا سياحا ولا فضوليين ، ولكنهم - همس في أذني بالانجليزية - مخدرون !

ولم أستطع أن أفهم القصة الا بعد سؤال خمسة أشخاص على الاقل ، لأن كل واحد منهم كان يروي مقطعا ، ثم يلتزم الصمت وأعترف أنني كنت أجهل أن أسعار المخدرات في هذه المنطقة من آسيا مغرية الى حد كبير . وأن بعض جماعات الهيبيز يجذبهم هذا الاغراء ، فيجيئون من أوروبا في سيارات عبر تركيا وإيران ، ليقيموا في فنادق شديدة الرخص بكابول .

أجر الحجرة فيها يصل أحيانا الى دولار واحد في الليلة .

يستمتعون برؤية هذا البلد البكر ، ويتلذذون طوال الوقت بالمخدر الحشيش الاخضر الذي يعرف باسم « ناسوار » ، ثم يعودون ! وقد قال لي العارفون في جلال أباد أن « الحشيش » هو أرخص في سعره من كابول ، الأمر الذي يدفع هذه القوافل الشاردة الى النزوح في اتجاه جلال أباد ، سعيا وراء الغيبوبة الأرخص .

ويقول العارفون أيضا أن الحديث عن افغانستان من خلال حزام الاحواض الهضبية الذي يربطها بغيرها ، يعبر عن جزء من الحقيقة

فقط . ذلك أن هناك حزاما آخر غير مشروع لمزارع الحشيش يمتد من تركيا الى إيران وافغانستان والتبت . وأن حرب الافيون التي شنتها بريطانيا ضد الصين في القرن الماضي ، اتخذت من هضاب افغانستان ركيزة اساسية لها ، كانت تنطلق منها وحدات شركة الهند الشرقية (الانجليزية) حاملة المخدر الى الصين !

عدت أسأل مرافقي ، أليس غريبا ان تتواجد تجارة المخدرات في مع شديد التدين والمحافظة ؟

فكان رده أن التجارة موجودة في بعض المدن فقط وهي التي يطرقها السياح . ومع ذلك فهناك من يبررها ، بقوله ان الغرب صدر الى افغانستان في الماضي شرورا كثيرة ، فلماذا لا نرد له بعض ما فعله فينا ، والبادي أظلم !

اردنا الخروج من كابول فواجهتنا مشكلة . اذ لا بد من تصريح وإذن مسبق ، واذا كانت كلمة «عربستان» هي جواز المرور الذي استخدمناه في تعاملنا مع الناس ، فان السلطة لا تفرق بين عربستان و« كافرستان » ، ومعذرة لاستخدام الكلمة فقد صكها أهالي أفغانستان عبر العصور . ذلك أن العرب عندهم مسلمون كما قلنا ، وغير المسلمين كفار . وهو تطبيق محرف لفكرة محرفه ، تبناها بعض الفقهاء ، في الماضي إذ قسموا العالم الى دار الإسلام ودار الحرب ، التي هي في رأيهم دار الكفر ، وكان أول تطبيق لهذه الفكرة في

افغانستان ذاتها، إذ عرفت على حدودها الشرقية مجموعة من القبائل البوذية ، ذكرت في كل كتب الجغرافيين القدامى بأنها « كافرستان » ، لكنها دخلت الاسلام على يد الامير عبد الرحمن في آخر القرن الماضي (١٨٩٥) ، فصار اسمها - ولا يزال - نورستان !

اجتزنا المشكلة وركبنا « الصعب » الى قندهار ، تكررت بعض مشاهد مسلسل الرعب اللعين الذي شهدناه في الطريق الى مضيق كابول - مع اضافة بعض المقاطع التاريخية ، اذ كانت صور الطريق تعود بنا بين الحين والاخر الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . البيوت المبنية من الطين ، والقلاع القديمة المزروعة وسط الصحراء ، والناس الذين يفزعهم بوق السيارة ، ويتفرسون بفضول مثير في عيون ركابها بينما الغبار يكسو وجوههم ، ولحا الرجال طويلة وكثه ، وأيديهم خشنة مليئة بالشقوق ، وأرجلهم لم يعد يؤثر فيها حصى الصحراء ولا حصاه الملتهب . كأنهم خارجون لتوهم من بطن التاريخ ! وتكاد تشم عن بعد رائحة الاتربة التي خلفها موكب السلطان ، كأنه مر قبل لحظات تتبعه الخاتون - زوجته - والجواري . ولفرط احساسك بالتاريخ ، تكاد تسمع صوت حوافر الخيول المطهمة ، وقعقعة سيوف الجند ، ونفير المنادي يعلن قدوم السلطان أعزه الله .

في الطريق الى قندهار مدينة احتلت موقعا بارزا في تاريخ شبه القارة الهندية ، هي « غازني » . وقد جار عليها الزمان فبعد ان ارتبط

اسمها بالفتوحات والبطولات ، صارت الان سوقا كبيرة يتسلى السياح بالطواف بشوارعها الضيقة وتأمل وجوه البشر وانتقاء ما يحلو لهم من الثياب المشغولة بالالوان الزاهية .

كثيرون كتبوا عن غازني وسلطانها الشهير محمود الغزنوي ، لكن الامير شكيب ارسلان كان أكثرهم انفعالا بها ، اذ كتب يقول في « حاضر العالم الاسلامي » : ومن تلك الجبال انحدر ذلك المجاهد الكبير « اسكندر الاسلام » ، وحامي المعارف والعلوم في عصره السلطان محمود سبكتكين الغزنوي التركي (المغولي) ، في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد ، ودوخ الهند من اقصاها الى اقصاها « . . وبعد أن روى بعضاً من بطولات الغزنوي في الهند ، سجل كلمات شيخ الكتاب ابو الفضل بديع الزمان التي وصف فيها جهد السلطان محمود بأنه « الفتح الذي تضاءلت أمامه الفتوح ، واثنت عليه الملائكة والروح » . . حتى اطلق عليه لقب « أمين الدولة ويمين الملة » .

لكن قندهار خطفت الضوء من غازني ، عندما كانت عاصمة الملك أحمد خان الذي أسس افغانستان الحديثة ، تماما كما دار الزمن دورته ، وتركز الضوء على كابول ، وبقيت قندهار في الظل ، قانعة بلقب العاصمة الثانية .

ومع ذلك ، لا تزال بعض آثار المجد الغابر باقية ، فالمدينة تنافس كابول في جمالها شكلا وموضوعاً . العمارة القديمة تشي بماضٍ عريق ، تبدو بصماته أكثر وضوحا في طراز المساجد وقصور اسرة الدوراني . وأسواقها عامرة بالبضائع والمشترين ، وأغلبهم من السياح . بينما أكثر التجار من الهنود .

الآن هي مقر المؤسسات الغربية التي تنفذ مشروعات الطرق والكهرباء في الجزء الجنوبي من أفغانستان ، غير أن قيمتها التاريخية تجذب الكثيرين اليها .

ذلك ان مؤسسها الحقيقي هو الاسكندر الاكبر ، الذي جاء بجحافله في القرن الرابع قبل الميلاد ، حيث استمر حكم اليونان قرنين من الزمان ، وكما بنى اسكندرية مصر والبحر المتوسط ، اراد ان يخلد اسمه في وسط اسيا ، وبنى اسكندرية « اراخوسيا » ، كما كانت تسمى قبل الميلاد ، وحملت فيما بعد اسم قندهار .

ولا تثير هذه الصفحة اهتمام الافغانيين ، لان الذي يستأثر باهتمامهم هو ذلك « المزار » الذي يقال انه يحتوي على عباءة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . وهم يقرنون بين المكان وقيمه العباءة ، فيطلقون على الاثنين اسم « الخرقه الشريفة » . . والخرقه ، هي الثياب القديمة عند بعض العرب .

وتضيف الرواية ان الملك احمد خان هو الذي احضر العباءة الى

عاصمة ملكه ، تيمنا وتبركا . لكن أحدا لم يتحقق من صحة هذه الرواية ، التي تماثلها روايات أخرى عن « مقدسات » في أنحاء أفغانستان ، تثور تساؤلات عديدة حول حقائقها التاريخية ، وحجم الافتعال والاسطورة فيها .

لكن الذي حدث أن الملك احمد خان استطاع بجهده هذا أن يحتل مكانة رفيعه في قلوب الافغان ، وعندما مات الرجل بنوا له ضريحا عظيما ، جدرانه مغطاة بالخزف والفسيفساء ، وقبته محلاة بصحائف الذهب !

وطريق قندهار البريِ ، يقود الى هراة . .

وكلمة « يقود » هذه تعادل في الارقام ٦٠٠ كيلومتر ، وتعني في برنامج الرحلة أن نعود الى ركوب الجبل طوال يوم كامل ، من فجره الى غروبه . وهو استمرار لركوب « الصعب » ، مصحوب بحلقة جديدة من مسلسل الرعب الذي كتب علينا أن نشارك في بطولته رغما عنا . . وهي مصادفة غير سعيدة بكل تأكيد ، تلك التي حددت أغلب مسارنا قرب قمم جبال افغانستان العالية ، وشدت ابصارنا دائما الى صخور السفوح بأفواهها المفتوحة !

ظللنا نحسد الرعاة الذين كانت تجمعات خيامهم المصنوعة من جلد الماعز تتناثر على مشارف الوديان ، وتمنينا ان نجلس في المقاهي المزروعة على مسافات متباعدة من الطريق ، لكننا كنا أشد حرصا على ألا نضيع دقائق تقربنا من هراة ، وتختم هذه الحلقة من المسلسل بأسرع وقت ممكن .

وفي أفغانستان كلها ، إذا سمعت صوت الموسيقى ينبعث من مكان ولا يتوقف ، فأنت إما على مشارف هراة ، أو مقبل على جماعة من أهل هراة . . وقد كنا من الفريق الاول .

على البعد يرى القادم منارات ستاً ، كانت تحيط بالجامع الكبير الذي بنته إحدى ملكات هراة في القرن الرابع عشر ، الذي يعتبر العصر الذهبي للدولة التيمورية التي قامت آنذاك . وهو العصر الذي أنجب أعظم الشعراء ، مولانا نور الدين جامع ، واعظم الفنانين ، بهزاد .

في تلك المرحلة ، زار ابن بطوطه هراة، ثم كتب يقول : ومدينة هراة كبيرة عظيمة ، كثيرة العمارة ولأهلها صلاح وعفاف وديانة ، وبلادهم طاهرة من الفساد .

لكن تاريخ هراة فيه اكثر واخطر مما قاله ابن بطوطه . فهذه المدينة الناعمة الشهيرة بالموسيقى والسجاد ، ترقد على صفحات مثيرة من

التاريخ ، بعضها غارق في الدم . . وبعضها غارق في الدمع ، وأقلها نابض بالحياة !

فقد دمرها الاسكندر الاكبر ، وبناها من جديد ، ولا يزال أحد الحصون التي شيدت في عهده قائما الى الآن في قلب المدينة ، يستظل به باعة الفاكهة والخضراوات الذين يفترشون الارض ، وتحتمي به الدواب من القيظ !

ثم خربها السلجوقيون في حربهم مع الغزنويين ، و بعدهم - في القرن الثالث عشر - جاءت جحافل المغول غازية ، وباشر الامارة فيها « تولى » ابن جنكيزخان ، ولكن الناس ثاروا عليه وقتلوه . فما كان من جنكيزخان إلا أن زحف ومعه ٨٠ ألف رجل ، ظلوا يدمرون ويذبحون في المدينة مدة ستة اشهر - كما تقول كتب التاريخ - حتى لم ينج من اهلها سوى اربعين شخصاً !

ثم دمرت هراة في مرة تالية عندما جاءها تيمورلنك في القرن الرابع عشر ، ولكن إبنه شاه روخ عمرها ، حتى شهدت - اخيرا - مرحلة من الهدوء والاستقرار !

استغرقنا التاريخ في هراة ، وهي مشكلة واجهتنا في اكثر المناطق التي زرناها ، اذ ان الكثير من شواهد التاريخ لا يزال بعضها قائما ، فضلا عن أن صفحات التاريخ مليئة بعناصر الإثارة . . ثم إن الواقع

الافغاني بحد ذاته ، يكاد ينتمي الى الماضي ، بأكثر من انتمائه الى الحاضر والمستقبل .

ما العمل مثلا ، عندما نمر في طريق عودتنا إلى كابول ببلدة باميان ، حيث نحت الرهبان البوذيون باقتدار غريب مثالا لبوذا في جبال الصخر الشاهقة ، بحيث تمتد قامته الى ارتفاع ٥٥ مترا ، منذ كانت البوذية هي الديانة السائدة ، قبل قدوم الاسلام في القرن الثاني الهجري .

يخطف الابصار هذا التمثال الهائل ، الذي لا تستطيع أن ترى تفاصيله عن قرب الا اذا صعدت فوق سلالم خلفية تتلوى وراء ظهر التمثال . تنقطع انفاسك ولا تبلغ الرأس . وان كانت التشوهات التي أحدثها بعض عامة المسلمين ظاهرة . فقد كانوا يرون فيه « صنما » ينبغي تحطيمه .

أمام تمثال بوذا ، لا بد ان تستغرقك تلك الصفحة الوثنية في تاريخ افغانستان ، وقصة آلاف الرهبان الذين كانوا يعيشون تحت اقدامه ، حيث كانت هناك تماثيل أخرى آثارها باقية ، ثم قصة الرهبان الذين « يحجون » الى المكان الآن ، بأرديتهم الصفراء ورؤوسهم المحلوقة واللامعة . . يفدون من بورما وسيلان وتايلاند وبقية دول آسيا .

تنسى مثلا ، هذا الوجه الاخضر الذي تطل به باميان ، تلك المساحات الواسعة التي تمتلىء بكل انواع الخضرة والفاكهة .

وتتجاهل قطعان الثيران التي تنتشر عند السفوح والرزق تحت حوافرها لا ينضب . . وتنسى البشر الرحل والمقيمين ، من أبناء قبائل الهزارة ذوي الاصلَ المغولي .

مزار شريف وعوالم أخرى

الى الشمال من كابول . .

وهذا يعني بالارقام ايضا ٢٤٠ كيلومترا راكبة الجبل من باميان الى كابول ، ثم عشرات بل مئات الكيلومترات من كابول الى أبرز معالم الشمال ، وأبعدها ـ في رحلتنا ـ مدينة « بلخ » الأقرب الى حدود الاتحاد السوفيتي منها الى العاصمة الافغانية .

ثم ان هذا يعني بلوغ مسلسل الرعب قمة الاثارة ، اذ اننا هنا ـ مارون بجبال هندوكش العتيدة ، بكل ظلالها التي تلقيها في الحياة الافغانية .

اخيرا فان هذا يعني تحليقا في عوالم مختلفة الى حد ما ، واقترابا اكثر من وجه لم نتفرس في قسماته جيدا طوال الرحلة ، رغم أهميته

البالغة ، وأعني به وجه الاسلام في أفغانستان .

ذلك أن خريطة الشمال تتصدرها مدينة تحمل اسم « مزار شريف » . وهي مدينة قامت على ضريح قيل ان جثمان الامام علي بن ابي طالب يرقد فيه . وهو حدث خطير في المنطقة ، يبرر اعتباره اسما للمدينة ، ويبرر ما هو اكثر من ذلك . فكونه مزارا ، فهو قيمة لها قداسة خاصة . وكونه شريفا ـ أي من سلالة النبي عليه السلام ـ فان قيمته ترتفع الى مقام عال عال لا يحده بصر .

وفي كل مدينة أفغانية ، وفي كل واحدة من قراها لا بد أن يكون هناك مزار أو أكثر ، ضريح لواحد من « الأولياء » . وقد ترقد الى جواره زوجته وأبناؤه ، وقد يكون الضريح قبرا عاديا ، يرتفع « الشاهد » فيه بعض الشيء ويحيط به سور يميز حدوده . وترتفع في ركن منه ، فوق سارية من جذع شجرة أعلام حمراء وخضراء . وفي ركن آخر يجلس رجل ذو لحية طويلة ، غالبا ما يغطي رأسه بعقال مذهب ، من ذلك الطراز المعروف في السعودية . . لإضفاء مزيد من « الشرعية » والقداسة للمكان .

وشيخنا هذا له وظائف متعددة ، فهو الحارس والمرشد وموزع الاحجبة والتمائم ، ثم إنه ـ وهذا هو الأهم ـ الذي يتلقى النذور التي يقدمها فقراء المسلمين ، واعدا بتوصيلها الى من يهمه الأمر تمهيدا لاتخاذ اللازم !

ولا يمر احد امام الضريح الا ويقف ، قارئا لبعض آيات القرآن الكريم ومتمتما ببعض الأدعية التي يطلقها وهو مسبل العينين ، ثم داعيا الله سبحانه ان يحقق له الرجاء . بعضهم يدس ورقة في ركن الضريح . وبعضهم يتحسسه تبركا ، وبعضهم يقبله بحب عظيم . . وبعضهم يسجد له . على الاقل ، فان هذا ما رأيته بعيني ، والله اعلم بما لم اره !

ومسألة المزارات هذه واسعة الانتشار في أطراف العالم الاسلامي ، ربما لأن الاسلام دخل هذه المناطق على وثنيات كانت لها جذورها ، من البوذية الى الهندوكية الى المزدكية ، وإما لأنهم بحكم موقعهم على الأطراف يحسون بخطر الذوبان في الآخرين ، فيتمسكون بالرمز ، ويبالغون في التمسك بالتعاليم ، وبذلك لا يصبح الضريح ـ في حالتنا هذه ـ هدفا ، بل يتحول الى ملاذ وملجأ .

وأيا كان التفسير ، فذلك لا يغير من حجم الظاهرة وانتشارها منذ القدم .

والطريف أن ابن بطوطه يروي لنا في دفتر رحلاته أن واحدا من أولياء خراسان قرر فيما يبدو أن يباشر الوظيفة بنفسه ، يوزع البركات ويتلقى النذور ، وكان اسمه «أطا» أي أبو الأولياء . و«هم يذكرون أن عمره ٣٥٠ سنة ـ هكذا كتب ـ ولهم فيه اعتقاد حسن ، ويأتون

لزيارته من البلاد والقرى . ويقصده السلاطين والخواتين (تصور ؟) . نزلنا على نهر ودخلنا اليه . فسلمت عليه وعانقني وجسمه رطب ، لم أر ألين منه . ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة . وذكر لي أنه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والاسنان . . وشككت في حاله ، والله اعلم بصدقه »

والمثير للانتباه هنا ، الى جانب غرابة الواقعة وإيمان السلاطين بها ، ان ابن بطوطه ايضا كان في شك من امره أي ان الرجل كان بين مصدقٌ ومكذب ولم يستطع الا ان يحيل الامر لله في النهاية !

هذا كله عن الاولياء ، او بالكاد « أطا » الاولياء . .

لكننا هنا أمام وضع مختلف . . نحن أمام مزار شريف ، يمتد فيه النسب الى آل البيت ، برصيدهم الذي لا ينضب في الأعماق الاسلامية .

غير ان « الخبر » ذاته ليس ثابتا . اذ ان مسألة وجود جثمان الامام علي في مزار شريف ، محل نظر .

والثابت تاريخيا أن علي بن أبي طالب قتل ودُفن في الكوفة بالعراق في القرن السابع الميلادي ، وضريحه قائم هناك للآن ، ويعرفه الكل باسم « العتبات المقدسة » . ولم يثبت أنه نقل الى شمال أفغانستان . وروايتهم التاريخية في هذا الصدد تحتاج الى تحقيق . فهم يقولون

حتى في الكتب الرسمية ، أن جثمان الامام علي أخفي بعد القتل خشية التمثيل به ، ثم نقل سرا فوق ناقة بيضاء ، مضت به بعيدا حتى حطت في هذا المكان . وبقي هناك زمنا ، ولكن السلطان السلجوقي سان جار اكتشفه وتحقق منه ، وأمر ببناء ضريح فوقه ، تكريما وتعظيما .

وهي صورة من المشكلة المثارة حول ضريحي الحسين في دمشق والقاهرة ، ثم ضريح السيدة زينب في المسجد الاموي بدمشق ، وضريحها في حي السيدة زينب بالقاهرة أيضاً، والقول بأن زينب بنت الرسول دفنت في البقيع بالسعودية وأنها لا هذه ولا تلك !

ومع ذلك ، تظل القناعة مستقرة في أفغانستان بأن جثمان الإمام علي قائم في مزار شريف ، وإليه يقصد كل عام ألوف الشيعة في مناسبات عديدة ، على رأسها عيد النوروز (الربيع) وطوابير السياح تطوف مشدوهة بجماله المعماري ، المآذن المذهبة والقباب ذات اللون الفيروزي والجدران العالية المسكوة بالخزف والفسيفساء والنقوش الرائعة ، ثم بثرائه الذي يعكسه أفخر السجاد والثريات ، والمقابض الذهبية التي ترصع الابواب ، والمصاحف النادرة المكتوبة بخط اليد منذ قرون .

وشيعة افغانستان أقلية . فمن بين ١٥ مليون نسمة هم كل سكان البلاد ، هناك مليون ونصف المليون من الشيعة ، يتركز اغلبهم في

المناطق القريبة من الحدود الايرانية . ولهم مجتمعاتهم المنظمة والمحكمة حلقاتها ، عقيديا واجتماعيا . . والباقون من أهل السنة ، الذين يتبعون مذهب الامام أبو حنيفة ، رغم أن ابن حنبل ولد ونشأ في مرو عاصمة خراسان .

وعبر العصور ، كانت هذه المنطقة أحد معاقل الفكر السني ، التي انجبت فقهاء وعلماء لا تزال أسماؤ هم تحتل مكانة رفيعة في عالم الاسلام . فغيربن حنبل نشأ هنا الامام البخاري وابو مسلم الخراساني ، والترمذي ، وابو حامد الغزالي والسرخسي والبيهقي والنيسابوري . . وعيرهم كثيرون .

وحتى الآن ، فان التعليم والثقافة الدينية تشكل قيمة لم تهتز في افغانستان ، كما حدث في دول اسلامية اخرى كثيرة فالكتاتيب والمدارس (والمدرسة بنطقها العربي تطلق على معاهد التعليم الديني فقط ، خارج العالم العربي) ، تنتشر في كل القرى والمدن .

ورجال الدين درجتان :« الملا » ، وهو الذي تلقى تعليما دينيا متوسطا ، وهو من الشباب غالبا . ثم « المولوي » ، وهي المرتبة الأعلى ، التي لا يبلغها الا المتمرسون من كبار السن ، أو الحاصلون على شهادات عليا من المعاهد الدينية في مصر والسعودية ، او كلية الشريعة في جامعة كابول ، التي يلتحق بها السنة فقط ، ولا يدخلها الشيعة .

وخارج المدارس والكتاتيب ، فكتب الفقه هي تراث مقدس تقتنيه العائلات وتتوارثه ومنها ينهل الكبار لتلقين الصلاة وفي كل البيوت تقريبا - والأسرة هناك ما زالت على عهدها القديم ، الجد والأبناء وزوجاتهم وأحفادهم في دار واحدة - يباشر الاجداد هذه المهمة . . بعد صلاة الفجر ، التي تحرص عليها الأسرة الافغانية ، يجلس الجميع حول الجد الذي يؤدي دور المعلم والعريف ، ويظل الجميع يتلون القرآن ثم كتب الفقه ، ويحفظون كلما أمكن .

واكثر التقاليد مرتبطة بالدين ، فالزواج مثلا يعكس هذا الارتباط الوثيق بالدين . فبعد أن يتولى الملا اجراء العقد تتم طقوس الزفاف التي تكاد تكون حفلا مليئا بالرموز الدينية . فثياب العروس ذات لون اخضر . التي يقال حتى عندنا أنها ثياب اهل الجنة ، لا بد أن تخضب بكفها اليمنى هي والعريس باللون الاخضر ، ليكونوا « من أهل اليمين » . . ويجلس الاثنان على مقعدين متجاورين ، ويقترب الرأسان ويغطيان بقطعة من القماش ، ثم يدخلون عليهما مرآة متوسطة الحجم ليرى كل منهما وجه الآخر فيها . اذ تفترض التقاليد المحافظة أن العريس يرى وجه عروسه لأول مرة اثناء الزفاف . . وبعد « ثبوت الرؤية » ، يوضع مصحف شريف فوق المرآة ، حيث يفتح على أي صفحة ، ويقرآن معا ، رمزا للارتباط امام الله ، ثم ينكشف الغطاء ، وسط تهليل وتصفيق الجميع . .

وبعد ذلك يبدأ الغناء الذي هو في الاساس مدائح نبوية وقصائد دينية . وبالمناسبة فان المهور عند الأفغان عالية جدا . اذ يطالب الشخص العادي بدفع ما يعادل الفي دولار مهرا .

لكن المشكلة أن الفكر الديني في افغانستان يتعامل مع مستوى من الاجتهاد والثقافة الدينية ، مرت عليه قرون . وأن الرؤى المستنيرة في التفكير الاسلامي لم تعرف طريقها الى تلك البلاد في العصور الحديثة ، لسبب أو آخر .

وكانت نتيجة ذلك أن خلافات السنة والشيعة أخذت طابعا حادا في القرى البعيدة ، وهو أمر طبيعي في مجتمع تصل نسبة الامية فيه الى ٩٠٪ ، وتصل نسبة التعلق بالدين كما يراه المذهب الى ألف في المائة ، وهي ذاتها الخلافات التي كان يدور حولها الجدل في العصر الاموي ، وتتركز في مسائل الاعياد وصلاة الجمعة والأذان وزواج المتعة ولكنها تزداد عمقا بين الاميين ، ومن بعضهم تكونت جماعة « الغالي » ، التي تستحل دم ومال السني ، أخذا بثأر امير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أليسوا هم قتلته، كما يقولون ؟ وبسبب مثل هذه التناقضات ، صدر قانون كان مستمرا حتى عهد الرئيس السابق محمد داود ، يحظر تولي المناصب العامة على اتباع المذهب الشيعي .

ورغم ان هناك تيارات اسلامية متحركة عند الجيران ، باكستان والهنـــد على الأخص ، الا أن هذه التيارات لم يمتـــد تأثيرهـــا الى افغانستان ، بسبب العزلة السياسية والطبيعية التي عاشت في ظلها (الجبل مرة اخرى !)

وفي النهاية ، فقد اصبح الشرع هو ما يقوله الملا ، وهو اعتبـار يضرب في عشرة ، اذا كان القائل هو المولوي .

وقد قال لي بعض اساتذة كلية الشريعـة في جامعـة كابـول انهـم يلاقون صعوبـات شديدة من جراء هذا الفهـم . وعلى حد تعبـير أحدهم فانه « اذا قلت لهم قال الله وقال الرسول ، فان البعض يرد ، ولكن الملا قال » ؟!

واذا اقتنع الواحد من هؤلاء بمـا يقولـه الأستـاذ ، فانـه يعقـب صراحة بأنه لا يستطيع ان يجهر برأي ما لم يعلنه الملا ، وانه سيكتم الرأي في نفسه ، حتى يأذن الله ، ويأذن الملا !

واذا اضفنا الى هذا العنصر الفكري ذلك العنصر النفسي الـذي يؤ رق مسلمـي هذه المناطـق البعيدة ، وأعنـي به « الخـــوف » من الذوبـان في البحـر الآسيوي الواسـع والمتلاطـم الأمـواج ، حيث تنتصب افغانستان في وسط دول كبرى غير مسلمة ، مثـل الاتحـاد السوفيتي والصين والهند ، خصوصا تجربة المسلمين « السوفيت » الذين يعيشون في المناطق اللصيقة بحدودهم (مسلمو جمهـوريات

اوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وغيرها) . أقول اذا أضفنا هذا العامل النفسي ، فاننا نستطيع ان نفهم تشدد مسلمي افغانستان في التعلق بالاحكام الدينية ، والمبالغة في تنفيذها .

وتجسد قضية المرأة هذا الموقف . فقد كانت ممنوعة من الخروج الى العمل حتى عام ٥٩ ، عندما كسرت الدولة هذا الحظر مستخدمة سلاح القانون . ثم ان الحجاب (الشودري) الذي لا يكشف من المرأة حتى الوجه والكفين ، هو السائد في كل القرى الافغانية ، رغم ان قرارات تشغيل المرأة سمحت لها في الوقت ذاته بالتحلل من الحجاب .

وقد كلفت هذه القضية الملك أمان الله خان عرشه . إذ كان الرجل شديد الإعجاب فيما يبدو بكمال أتاتورك ، فقرر أنه لا سبيل الى تقدم أفغانستان إلا التشبه بالغرب . وليته أخذ من الغرب بعض فكره المتقدم، ولكنه بدأ بالزي ، أي بالشكل، وهذا هو الأسهل. فبدأ بنفسه وأسرته ، وسافر الى رحلة خارجية في عام ١٩٢٨ ، بدأها بزيارة مصر ، حيث ظهرت زوجته « ثريا » سافرة لأول مرة ، وخرج هو على الناس لابساً قبعة !

لكن الادهى من ذلك انه ذهب الى الجامع الازهر ليلتقي علماءه والقبعة فوق رأسه ، ويعلق على هذه الواقعة راويها الأمير شكيب أرسلان ، قائلا « فبعد أن كان العلماء قد اجتمعوا هناك إعظاما

بقدومه ، عندما شاهدوه آتيا بالقبعة انصرفوا مشمئزين »

ووصلت أنباء وصور أمان الله وزوجته إلى كابول ، مما كان سببا في ثورة العلماء والقبائل عليه بعد عودته ، الأمر الذي دفعه الى الهرب من العاصمة للاحتماء باسرته في قندهار ، ثم « فر بالطيارة الهند » بتعبير الامير شكيب ، ومنها الى روما . ولم يشفع للرجل كل ما قدمه من أعمال جليلة لبلاده ، من فوزه باستقلالها ، الى استقرار داخلي واصلاحات كثيرة . *

ويذكرنا ذلك بما رواه ابن بطوطه عن زيارته لهراة ، اذ قيل له أن أهل المدينة « تعرفوا ان بدار الملك حسين ـ مليكهم ـ منكرا ، فاجتمعوا لتغييره ، وتحصن منهم داخل داره . فاجتمعوا على الباب في ٦ آلاف رجل ، فخاف منهم ، فاستحضر الفقيه وكبار البلد . وكان قد شرب الخمر . فأقاموا عليه الحد بداخل قصره ، وانصرفوا عنه »

---

* يروي الامير شكيب في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » أنه التقى بالملك أمان الله خان في سويسرا بعد تنازله عن العرش ، قائلا أنه « جرت بيني وبينه عدة مجالس نخلنا فيها جميع المسائل التي أوجبت الانقلاب الذي اجري في افغانستان . ولم اكتم عنه شيئا من الانتقادات التي وجهتها على سياسته وحررت بها بعض المقالات في الجرائد العربية . فكان جوابه على ذلك انه قسم ما عزى اليه من الامور الى ثلاثة اقسام ، قسم اقر فيه بالخطأ والتسرع ، وقال ان مجلس وزرائه لم ينبهه له ، وقسم قال انه جرت فيه مبالغة كبيرة بحسب عادة الرواة في المبالغة . وقسم انكر وقوعه بتاتا ، وقال انه من باب الافتراء عليه » ويواصل الامير شكيب روايته قائلا انه الملك ابدى له رغبة في اداء فريضة الحج . وانه ـ الامير شكيب ـ كتب الى الملك ابن سعود ! الذي اكرم وفادته الى حد كبير .

أي انهم جلدوا الملك ثمانين جلدة ، أو اربعين على احسن الفروض ، أخذا برأي الشافعية !

وبهذه الغيرة الشديدة على الاسلام ومقدساته ، لم يتردد أهل قندهار في قتل جندي انجليزي دخل الى صحن مسجدهم الكبير بحذائه ، الامر الذي ادى الى ابادة ٤٠٠ من الافغان ، في حملة انتقامية وحشية جردتها قيادة الجيش البريطاني على المدينة .

لكننا نكاد نظلم الحقيقة اذا اعتبرنا « مزار شريف » هي وجه الاسلام في افغانستان ، او حتى رمز له ، ونصبح اكثر انصافا اذا اعتبرنا المدينة والمزار مجرد « مناسبة » لطرق هذا الموضوع .

ينطبق ذلك ايضا على نورستان ، التي كانت كفرستان ، وكان تغيير الاسم هو اعلان عن الانتقال من البوذية الى الاسلام كما قلت .

لكن الوصول الى نورستان بمثابة مغامرة جديدة ، اذ لا يكفي ان تقطع السيارة ٣٥٠ كيلومتراً في اتجاه الشمال الشرقي لكابول ، وفوق طرق يعتبر شقها وسط الغابات والجبال الصخرية من قبيل المعجزة بل لا بد من ركوب البغال بعد بلوغ مدينة « عرمر » الرئيسية هناك . اذ انها مع الجياد تعد وسيلة المواصلات الوحيدة التي يمكن ان تتعامل مع الارض الوعرة المليئة بالاحجار والمزالق . خصوصا وان قبائل نورستان تعيش في خمس اودية ولها خمس لهجات محلية مختلفة .

وربما كانت العزلة التي فرضت على هذه القبائل ، طوال قرون اعتناقهم للبوذية ، واعتبارهم كفاراً من جانب جيرانهم المسلمين . . هذه العزلة خلقت أنماطاً متميزة للمجتمع النورستاني . فهم الوحيدون في أفغانستان ـ مثلاً ـ الذين يسكنون في بيوت من الخشب ، بينما بيوت الآخرين من الطين . وهم الذين بدأوا بصناعة الأثاث ، المقاعد والأرائك بوجه خاص . وموسيقاهم تنفرد بذوق مختلف تماماً عن بقية المقاطعات . ثم إن نساء النوريين ينفردن بأن زيهن الأساسي ليس الشودري ، بل ثياب سوداء مستطيلة ، وعصابات تحيط بالرأس. وينفردن بتلك الظلال الحمراء اللاتي يضعنها فوق الجفون والكَحل في العيون .

ولأنهم من أشد المقاتلين مراسا منذ الزمن القديم ، فقد ضم الاسكندر المقدوني أعدادا منهم الى جيشه .

وقد قيل لنا أن انخراط اجداد النوريين في جيش الاسكندر ، تجاوز مسألة الحرب الى حالات تزاوج بين الطرفين أفرزت في بعض الاسر سلالة ذات « مواصفات » مختلفة . ورأينا « عينات » من هذه السلاله في شوارع بلدة « كاهديش » ، اذ كانت حلقات الشاي تضم وجوها ملفتة للانظار ، من ذوي الشعر الاشقر والعيون الخضراء .

وكان ملاحظا في القرية أن الرجال يسترخون في حلقات الشاي هذه ، بينما النساء منتشرات في السفوح وفي الحدائق . كل امرأة

تحمل فوق ظهرها سلة من القماش او الخوص ، تجمع فيها العنب والبرقوق .

وجاء الرد ـ عندما تساءلت عن الظاهرة ـ أن رجال النوريين وظيفتهم الاساسية هي الصيد والقتال ، والانطلاق بالجياد وسط أشجار البلوط الكثيفة في الغابات هو هوايتهم وصنعتهم الوحيدة .

غير أن هذا المجتمع الذي يعشق القتال والصيد ويعتبرها الوظيفة الوحيدة التي تليق بشجاعة ومقام الرجل ، يعتبر الماعز ثروة مالية ضخمة . ومركز الرجل الاجتماعي يقدر بعدد رؤوس الماعز التي يمتلكها . . بل ان مهر العروس او ثمن البيت وحتى البندقية ما زال يقيم بالماشية !

وأيا كان الاتجاه في الشمال ، فان العين لا تستطيع بأي حال ان تخطىء جبال هندوكش ـ اذ كيف تخطئها والراحل الى الشمال إما أن يكن راكبا لبعض قمم هذه الجبال ، أو مخترقا سفوحها ووديانها ، أو مشدودا الى تلك العمائم الثلجية البيضاء التي تتربع فوق القمم العالية والبعيدة ، ويقال أن هندوكش معناها « قاتل الهنود » ، ويقال ايضا ان ماركو بولو مر بهذه المناطق في رحلته الشهيرة الى الصين في القرن الثالث عشر .

واذا اعتبرت جبال هندوكش رمزا لقسوة الطبيعة وتجهمها ، الا ان هذه الجبال لها وجه آخر ، يشفع لها ، ويبدد بعضا من جهامتها . فبينها تتمدد أودية عديدة ، مليئة بالخضرة والفاكهة التي تغطي مساحات شاسعة من الارض ، وفي الشتاء تحمي الجبال زراعات هذه الوديان من الرياح الثلجية العاتية ، وفي الصيف تزدهر الحياة وتتفتح أزاهير الاشجار ، وتزحف جماعات الرعاة .

ومن الحقائق التي تلفت النظر في افغانستان ان حوالي ٥٣٪ من السكان يشتغلون بالزراعة و ١٨٪ يشتغلون بالاعمال اليدوية ، و ٢٠٪ من البدو الرحل ، والباقون موزعون على قطاعات الخدمات . وهذه التقديرات التي يسجلها تقرير البنك الدولي الذي صدر هذا العام تعني ان في أفغانستان أعلى نسبة من البدو الرحل في العالم كله . إذ لم يعد هناك بلد يظل خمس سكانه في ترحال دائم طوال العام ، هرباً من الثلوج مرة ، وبحثا عن العشب مرة أخرى وتجنباً للأمطار في مرة ثالثة !

وفي الربيع لا تجد تلك القبائل الراحلة مستقرا لها أفضل من وديان جبال هندوكش ، إذ تجد قطعان ماشيتها كل ما تشتهيه ، ويجد البشر كل ما يعوضهم عن معاناة الشتاء . وبسبب كثرة المراعي ، فإن أفغانستان من أوفر البلاد في الماشية ، اذ تقدر ثروتها من الابقار باكثر من ثلاثة ملايين رأس ومن الماعز بعدد مماثل ، ومن الاغنام بحوالي

مليون رأس . . وذلك يؤدي الى وفرة من نوع آخر في الجلود وكافة أنواع الفراء ، وهي سلع تجد سوقاً رائجة في المدن التي يطرقها السياح وكابول في مقدمتها .

على أن الأهم من هذا كله أن اقتصاد افغانستان الزراعي يقوم اساسا على انتاج تلك الوديان الممتدة بمحاذاة سلاسل جبالها الشاهقة ، والقمح على رأس محاصيل هذه الاراضي وبعده تجيء الذره والأرز والشعير ، بينما يحتل انتاج الفاكهة والخضراوات موقعا ممتازا ، يغطي احتياجات السكان ويفيض .

وطريق الشمال يؤدي الى مدينتين لكل منهما معالمها البارزة واحدة تطل على المستقبل ، والاخرى لها ماضٍ ! وبالمناسبة ، فان هذا الطريق بناه السوفييت ، كما أن الامريكان هم بناة طريق الجنوب ، وكلما اقتربت من الشمال كلما اقنعتك الشواهد بأنك تتجه الى الحدود السوفييتية . . السيارات السوفييتية بكافة طرزها على الطريق ، والجرارت السوفيتية في المزارع ، والبضائع السوفيتية في المحال التجارية . . حتى العارفين باللغة الروسية يتزايدون .

ومدينة المستقبل هي « بول خمري » ، التي تتركز فيها صناعة النسيج ، وتعد مع الاسمنت الصناعتين الوحيدتين في افغانستان

وحولها ظهر الغاز الطبيعي ، كما أن هناك تنقيبا عن البترول حولها ، ويقال أن الأمل كبير في التوصل الى نتائج ايجابية ، على اعتبار أن تلك المنطقة امتداد جيولوجي لمناطق البترول في جنوب الاتحاد السوفيتي .

اما مدينة الماضي فهي « بلخ » . .

وكان اسمها « باكتريا » في الزمن القديم ، عندما وفد إليها الآريون (والآري هو النبيل) من سهول تركستان وأسسوا دولة لهم باسم إريانا ، استقرت وازدهرت ، وخرجت منها جماعات الآريين التي اتجهت الى فارس وشمال العراق واوروبا . وعندما جاء الاسكندر الأكبر اتخذ منها مقرا له . . وعندما صارت عاصمة لدولة خراسان ، كان اسمها « بلخ » حتى خربها « تنكيز اللعين ـ يقول ابن بطوطه ـ وهدم في مسجدها نحو الثلث ، بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه ، وهو من أحسن مساجد الدنيا وافسحها » وبعد غارة تنكيز اللعين ، لم تقم للمدينة قائمة .

وفي ظل ازدهار الحكم الاسلامي بخراسان ، كانت بلخ وسمرقند وقندهار ودهلي ـ كما كان ينطقهاالعرب القدامى ـ مدنا تنافس بغداد ودمشق والقاهرة . . وفي تلك الفترة ، أنجبت واحدة من أشهر الشاعرات هي رابيه البلخي ، وابرز شعراء الصوفية جلال الدين الرومي .

لكننا نقع في خطأ كبير ، اذ شغلنا الاثر عن البشر في مناطق الشمال . . فهذه بلاد قبائل الطاجيك والتركمان اكثر القبائل ديناميكيه وانتاجا . ذلك ان ثروة وسمعة افغانستان في السجاد ـ مثلا ـ خرجت من هذه المناطق ، واذا كانت بنات التركمان الروميات قد عرفن في بعض مراحل التحلل في التاريخ الاسلامي بأنهن « أنفس الرقيق » ، كما ذكر بن حوقل ، الا ان لهؤلاء الفتيات قيمة أخرى الآن . اذ أن أرق وأجمل أنواع السجاد الافغاني تخرج من مناطق التركمان ، وبنات هذه القبائل ينسجن داخل بيوتهن كميات كبيرة من السجاد التي يتخاطفها السياح والأثرياء ، وتباع باسعار عالية .

غير ان ملاحة بنات التركمان ما زالت لها أصداؤها . فأغنياء الافغان القادرون على مواجهة أعباء الزواج والذين ينتشر بينهم تعدد الزوجات ، يحرصون على ان يقتني الواحد منهم بين زوجاته واحدة « رومية »

ومع ذلك لا تكاد تدخل محلا تجاريا في كابول أو قندهار الا وتجد فيه قطعة من بلاد الطاجيك والتركمان ، من السجاد الى الجلود والفرو الى الحلى وادوات الزينة الى العقيق والاحجار الكريمة .

على انه بقدر عطاء هذه المناطق ، فان « الأخذ » الذي تجنيه محدود للغاية . وبعدها عن قلب أفغانستان جعلها أكثر تخلفا ، وبالتالي ،

أكثر اقترابا من عوالم القرنين التاسع عشر والثامن عشر .

وكل ما قلناه عن تخلف حياة البشر في الجنوب نستطيع أن نكرره حرفيا ، ونضيف اليه الكثير في الحديث عن الشمال . فالأمية منتشره بنفس النسبة ، ومنظر حلقات « الكتاب » في مزار شريف التي يلتف فيها رجال القبائل حول الجالسين بالاقلام والاوراق ، يملون عليهم الرسائل الى الاهل والخلان ، هي ذاتها التي رأيناها في كابول وقندهار وهراة . ومشكلات تخلف التفكير الديني صورة طبق الاصل مما لمسناه في الجنوب . . وأمراض الملاريا التي تقتل الكثيرين من الاطفال ـ ويعزون اليها سبب النمو البطيء في عدد سكان أفغانستان نتيجة لأن الوفيات اكثر من المواليد ـ مع حصى الكلى الذي هو محنة الكبار . . هذه الأمراض لا تخلو منها قبيلة أو قرية .

والمرافق الفقيرة للغاية ، التي تكاد تنحصر في شبكات المياه والانارة التي تغطي المدن وبعض القرى القريبة منها ، هذه القاعدة لم يشذ عنها سوى الطرق ، التي تم شق ما هو أساسي منها ، ربما لأسباب عسكرية واقتصادية اساسا . .

هنا ، وقف الجبل عاجزاً عن التأثير والحيلولة دون تماثل هذه الاوضاع ، فلم يؤد دوره التقليدي كجدار عازل ، لأن التخلف ملة واحدة !

وأمام هذا كله ، يكاد الواحد منا يشعر بالخجل ، لأن مشقة

الطريق ومشاهد الرعب التي مررنا بها ، اصابتنا بالضجر أحيانا ، والاستياء احيانا أخرى ، وبينما كانت هذه المشاعر تستغرقنا وتستولي علينا ، نسينا أن هذا الذي نكاد نمتعض له في رحلة أيام معدودة ، هو نمط حياة يومية لملايين من البشر . وجميعا يحتملون قسوة الظروف الطبيعية والمعيشية ، ويتعايشون معها برضا وربما بحب . وكما النمل ،من إمكانيات منعدمة ، وبصبر ودأب شديدين ، ينحتون في الصخر بلادهم . . ويغسلون همومهم في حلقات الشاي ، وحلبات « البوزكاشي » !

معذرة اذا كنت قد اخطأت في حقهم مرة ثانية .

وأرجو أن يشفع لي أنني أتكلم من داخل البيت وليس خارجه . .

ألستَ من عربستان ؟؟

الفهـــرس

مقدمة ٥

● القسم الأول :

رحلة في الزمان : الحدث والحديث ١٣

- زنده باد انقلاب ١٥

- الرئيس تراقي قال لي . . ٣٣

- الزلزال ٥١

● القسم الثاني :

رحلة في المكان : الأثر والبشر ٧٩

- الجبل : هذا اللاعب الماهر ٨١

- « موزاييك » أفغانستان ٩٩

- مزار شريف وعوالم أخرى ١١٩

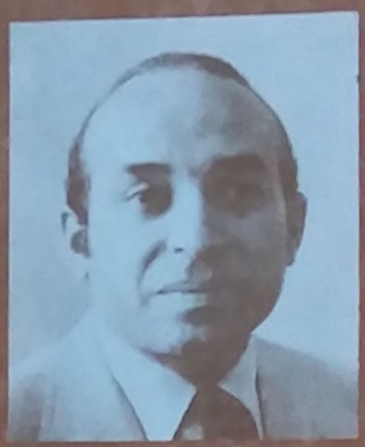

فهمي هويدي صحفي مصري بدأ حياته مع الصحافة في « الاهرام » القاهرية فعمل مشرفا عليها ويعمل الآن مديرا لتحرير مجلة « العربي » الكويتية

وفي « الاهرام » كتم في « العربي » بدا الجانب واضحا بصورة غالب بالقضايا الاسلامية ، بعيدا عن الافكار الجامدة والراكدة . وانصبت كتاباته على مدى سنوات الهجمة بالتطورات الاسلامية وأثارت اهتمام ذلك القطاع من القراء المثقفين الذين تستقطر في وعيهم وضمائرهم آمال بعث شخصية الاسلام كما خلق به غير القرود والابتعاد به عن ان يكون ـ كما حدث في اعصار كثيرة ـ اداة في يد حاكم أو نظام

على أن هذا الخط الاساسي لم يشغله عن الاهتمام ـ فيما ـ بمختلف القضايا التي تثار والاحداث التي تقع . وهكذا كان أول صحفي عربي يطير الى كابول بعد الثورة التي قامت في افغانستان في نيسان (ابريل) من العام الماضي ، ويلتقي بقادتها ويحاورهم ويقدم لقارئه صورة عن واقع الحدث ومكانه

الغلاف ٧ لوحات لسالفادور دالي

دار الطليعة للنشر ـ هاتف ٣٥٩٩٧ ـ ص.ب ١٣٠٥٦ ـ بيروت ـ لبنان

أبو عبدو البغل